

# ساعات السحر

بقلم

الدكتور أحمد زكي

Ph. D. (Liverpool) دكتور فلسفة

D. Sc. (London) دكتور في العلوم

عضو مجمع اللغة العربية

فهرس

ص	ص
١٠٥ ... .. الحمار الحزين	١ ... .. يمجني الشباب إذا
١١٢ ... .. علمتني الحياة	٩ ... .. قلوب كبيرة
١١٨ ... .. حب الأوطان	١٦ ... .. خواطر ، عند الحلاق
١٢٣ ... .. أصحاب الذين غابوا	٢٣ ... .. للزعامات عورات ، فاستروها
١٣٠ ... .. قطرة الجارة	٢٩ ... .. تعلمت حكمة ، من حمار وجزرة
١٣٥ ... .. دفاع عن القديم	٣٦ ... .. لذة الحرام
١٤٤ ... .. بادلوهم ، إيماناً بإيمان	٤٢ ... .. دنياك ، لا تخفها أبداً
١٥١ ... .. تحرك زمن ، فتحركت همومه	٤٩ ... .. عطشان يا صبايا
١٦٠ ... .. حشون ، بلا حشيش	٥٧ ... .. حدثني الجمال قال :
١٦٦ ... .. الأكل في وفطنة	٦٤ ... .. اللهم نساك السر
١٧٣ ... .. النسبة والتناسب	٦٩ ... .. ملاسل وأغلال
١٨٠ ... .. استاذنا معذرة	٧٧ ... .. الكرة التي تحمل فوق عتقك
١٨٦ ... .. هربوا من الحياة ، فدحمتهم	٨٥ ... .. الكذب في قديم الزمان وحدث
١٩٣ ... .. قلبي	٩٦ ... .. خذوا الدنيا ، غلاباً واغتصاباً

# ساعات في السحر

بقلم

الدكتور أحمد زكي

Ph. D. (Liverpool) دكتور فلسفة

D. Sc. (London) دكتور في العلوم

عضو مجمع اللغة العربية

فهرس

ص	ص
الحمار الحزين ... .. ١٠٥	يعجبني الشباب إذا ... .. ١
علمتني الحياة ... .. ١١٢	قلوب كبيرة ... .. ٩
حب الأوطان ... .. ١١٨	خواطر ، عند الخلاق ... ١٦
أصحابي الذين خابوا ... .. ١٢٣	للزعامات عورات ، فاستروها ٢٣
قطعة الجارة ... .. ١٢	تعلمت حكمة ، من حمار وجزرة ٢٩
دفاع عن القديم ... .. ١٣٥	لذة الحرام ... .. ٣٦
بادلوهم ، إيماناً بإيمان ... ١٤٤	دنياك ، لا تخشها أبداً ... ٤٢
تحرك الزمن ، فتحركت همومه ١٥١	عطشان يا صبايا ! ... .. ٤٩
حشاشون ، بلا حشيش ... .. ١٦٠	حدثني الجمال قال : ... .. ٥٧
الأكل فن وفلسفة ... .. ١٦٦	اللهم نسألك السر ... .. ٦٤
النسبة والتناسب ... .. ١٧٣	سلاسل وأغلال ... .. ٦٩
أستاذنا معذور ... .. ١٨٠	الكرة التي تحمل فوق عنقك ٧٧
هربوا من الحياة ، فلاحقهم ١٨٦	الكذب في قديم الزمان وحديثه ٨٥
قلمى ... .. ١٩٣	خذوا الدنيا ، غلاباً واغتصاباً ٩٦

الطبعة الثانية

## ساعات السَّحَر

---

هذه كلمات ، ثمان وعشرون ، فى شئون من الحياة  
شَتَّى ، لم أدْرِ ما أُسمِّيها ، ثم ذكرتُ أنى كتبتها ، حين  
كان يُصيبنى القلق ، أو لعله الكفايةُ من النوم ، عند نحو  
الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل . وأقوم فلا أجد مكاناً  
يأوى إليه القائم والناس نيام غير مكتبي . فأقضى فيه ساعةً  
أكتب أو ساعتين . ثم يؤذن المؤذن بالفجر ، يأتينى صوته  
من بعيد ، عَبْرَ الشجر والحجر ، كأنما ينادينى ، فيغلبنى  
النوم ، فأكُفُّ لأنام .

ومن أجل هذا سَمَّيتُ هذه الكلمات « ساعات السَّحَر » ،  
ربطاً لها بزمانها ، لما عَزَّ أن أربطها بموضوعها .

وبالله التوفيق .

أحمد زكى

المعادى عام ١٩٥٠



## يعجبني الشباب إذا . . .

يُعجبني الشباب إذا هو عريض يحمل الأثقال ابتساماً ،  
أدرك أنه الشباب ، فأخذ له وقدم ككرة المطاط لاتمس  
أكثر حقه ، وأعطى عنه أكثر الأرض حتى ترتد عنها ،  
واجبه ، ومضى على ثقة يداعب ومفاصل كفاصل الفولاذ  
الآمال ، ويعلم الأحلام . أغرقت في الزيت ، وجسم

صحيح سليم  
كالدينار ، إذا  
ضربته على الرخام  
رن ، له متانة  
الحديد ، وليس

« وجعلوا بين الشباب  
والكهولة خصومة ،  
ودخلوا بالسعاية بين الآباء  
والأبناء ، جرحاً بالأقلام ،  
واسترسالا في البنى ،  
ومناقضة للطبيعية »

يعجبني  
الشباب إذا هو  
استقام واستطال ،  
ثم انقل ، عضل  
مشدود يستطيع

أن يرتخي ، وذراع ممدودة به مسه ، نشأه أبواه فأحسننا  
تشيئه ، وروضته الرياضة  
فأحسن ترويضه .

يعجبني الشباب إذا هو

تأنق وترقق في غير أنوثة

صرفوع ، وصدر مفتوح ،

يستقبل الريح باردة ،

ويستقبلها لائحة ، وظهر

أو خنوته ، فيعجبني منه الوجه الطلق النظيف الذي يعمل فيه  
الموسى كل يوم ، أو لا يعمل أبداً ، والشعر المقلم المشوط ،  
والثوب البسيط الأنيق . فتلك زينة خليقة بابن آدم ، وهى  
أخلق ما تكون بشبابه ، وهى ضريبة المنظر الطيب الذى لا بد  
أن يشيع فى دنيا يخفف من عنثها أن تقع العين فيها على الحسن  
الجميل . ومع هذا فهو عند العمل يخلع التأنق ، وينبو عن  
الترق ، فإن كان العمل لحماً وزيتاً انغمس فى الفحم والزيت ،  
وإن كان انبطاحاً على الأرض تمرغ فى تراب الأرض ، وإن  
كان بخاراً وعفاراً ، نشق الأبخرة ، ولم يشح بوجهه عن  
الأعفرة . فإذا انتهى النهار دخل الحمام ، وخرج منه فعاد إلى  
التأنق على الصحة التى أكسبها العمل ، وإلى الترق على القوة  
التى أكسبها صرمان العضل .

\* \*

يعجبني الشباب إذا هو تفقع وتفقع بالحياء ، فإذا ضحك  
ضحك عالياً ، وإذا نكت نكت مسموعاً . ويعجبني فيه الحسن  
بالفكاهة ، يتلقفها طائفة ، ثم هو يطلقها ليلقفها الناس . ويعجبني  
منه أن يخلع عذاره أحياناً ، كما يخلع الفرس ، فيطمح ويجمع ،  
ولا يكون ذلك منه ديدناً . وهو مع هذا يغزف عن الخفا ،  
ويحبس لسانه عن مقالة السوء ، ويحب دأى المروءة ، فيتمهل

فى سرعته ليعين طفلا ، أو يقوم عن مقعد لتقعد امرأة ، وهو  
يحترم أخت صديقه إذا لقيها فى الطرقات ، ويعلم أن كل من يلقى  
من نساء إنما هن أخوات وأمهات وعمات . وهو يحترم وقار  
المواقف وسكون الجامع ، فلا يقف والناس قعود ، ولا يقعد  
والناس قيام ، ولا يضحك والناس محزونون مكروبون .

\* \*

بعجبنى الشباب إذا هو أدرك أن الصبا عهد مُتعة ولكنه  
كذلك عهد تحصيل ، وأن حياة الرجل المدنية الحاضرة غير حياة  
رجل الغابة ورجل الصحراء . وأن المدنية جلبت الناس الراحة ،  
وجلبت المتعة ، وأنها لم تنزل من السماء جاهزة ، ولم تسقط إلى  
الأرض على الدعاء والتمنى ، وإنما هى نتاج مجهودات عقلية جبّارة ،  
وهى حصيلة القرون وإرث الأجيال . والأم تتوارثها بالحفظ ،  
وتقوم عليها بالكد ، فتجدد بالياء ، وتملأ فارغا ، وتزبد على  
ما كان . وكل فرد يولد على هذه الأرض مسئول عن هذا الإرث ،  
وله فى حفظه ، وتجديده ، وزيادته ، نصيب . وهو إرث لا يتأهل  
لحفظه وتجديده وزيادته كل أحد . فالمدنية الحاضرة مدنية من  
نتاج الصنعة . وهى صنعة الإنسان العاجز إذا هى قورنت بصنعة  
الطبيعة القادرة الخالدة ، ومن أجل هذا جاءت مدنية الناس

كبيرة ضخمة غليظة معقدة كثيرة المحاور ، كثيرة العجل ، كثيرة التروس ، كثيرة التعاشيق ، لا يمسها فلا يفسدها إلا من درس وحصل ، وورث علم القرون . ووارثو علم القرون ، وحاملو المشعل من جيل إلى جيل ، إنما هم شباب الجيل . لهذا وجب أن يكون الشباب مُتعةً ودرساً . أما المتعة فلأن الشباب أقدر على مُتعة ، وأحسن بلذة ، وكل لذة عنده جديدة ، وعمره من بعد ذلك كعمر الورود قصير . وأما الدرس فلأن الدرس تبعه الإنسان لنفسه ، وعلى عُمره يقيم بناءً مستقبلاً ، ومستقبله إذا ساء بكى عليه ، وبكى وحده ، وبكى حين لا ينفع بكاء . ثم لأن الدرس حصّة الإنسان في مواصلة المدنية وفاء بمسؤوليته للقبيل والأمة والجيل .

\*\*

يعجبني الشباب أن يكون مُجدّداً متجدّداً ، يعلم أن عربة الحياة لا بد أن تسير ، وأن تسير دائماً نحو النور . فالعلم لا بد أن يتجدد ، وتتجدد أساليبه . والمال لا بد أن تتجدد طرائقه ، ويتجدد كاسبه ، وتتجدد حظوظ الناس فيه . والصحة لا بد أن تتجدد فيها المرافق ، وتجاري الزمان ، وأن تتوزع منافعها وفقاً لما يراه الجيل الجديد من توزيع المنافع على بني الإنسان . والأدب



لا بد له في العصر الجديد ، والبيئة الجديدة ، والحاجات الجديدة ،  
من مذاهب في البيان جديدة ، تسير الناس في معاشهم ، وتمس  
الحياة من قريب .

والحكم يتجدد ، فهو من حيث أسلوبه لا بد أن يجرى على  
أحسن الأساليب ، ومن حيث إدارة دولابه ، لا بد أن يجرى  
على أحدث ما تجرى الدواليب . ومن حيث إقامته لا بد أن  
يكون لكل فرد في الناس صوت فيه مسموع . وهو من حيث  
الثمرات ، لا بد أن يكون لكل عضو في مجتمعه فرصة متساوية  
عند الزرع ، لتكون له فرصة مؤاتية عند الحصاد .

والصناعة تتجدد ، فينتقل بها المجددون من عمل اليد إلى  
عمل البخار ، ومن البخار إلى الكهرباء ومن الكهرباء إلى  
الطاقة الذرية حين تكون .

والتعليم يتجدد ، فتجدد كتبه ، وتجدد فنونه ، ويُستهدى  
فيه أكثر استهداء بآخر ما وصلت إليه علوم النفس من كشف  
مواطن النفس وخفاياها .

كل هذا جميل أن يتجه الشباب فيه إلى التجديد ، فهو مما  
يتغير ويتبدل على الأيام .

ولكن في الحياة عناصر قديمة لا يمكن أن يعثرها تغيير

وتبديل ، إلا أن تنزل أركان العيش ، ويتقوض بناء الحياة .  
 فالأمومة قديمة ، والأبوة قديمة ، والبنوة قديمة ، وواجبات هذه  
 وهذه كلها قديمة ، وكذلك حقوقها . وهي حقوق وواجبات قد  
 تطول وقد تقصر ، وقد تنسع وقد تضيق ، ولكن قدرأ منها  
 لا بد ثابت لضمان سير الحياة واتصال روابطها . فالتحرر قد  
 يكون في شيء وشيء وشيء ، ولكن التحرر لا يمكن أن يكون  
 لطفل رضيع أو صبي يافع ، والتحرر كل التحرر لا يمكن أن  
 يكون حتى لشاب بالغ ، مادام أن هناك شيئاً يُسمى المعجز ، وما  
 بقي الزمن عاملاً في بلوغ القدر اللازم من خبرة الحياة .

\* \*

يعجبني الشباب إذا هو أصنى إلى الملق الكثير الذي يُكال  
 له هذه الأيام كيلاً ، فأخذ منه بمقدار ما يأخذ من المبهتات التي  
 تُنمَش وتنشط ، ولا يزيد فيكون ذلك إدماناً . فالمدح والإطراء  
 للتشجيع ، وليس أحوج إلى تشجيع كفاشي ، وليس أجل من  
 تشجيع هدفه شباب الأمة .

ولكن الذين يتملقون الشباب لأغراض شتى ، ليست كلها  
 مما يباركها الله ، قد أفرطوا ، حتى حسب كثير من الشباب ، أن  
 للشباب في ذاته مؤهل لولوج كل باب ، وهو إنما يتأهل لولوج

الأبواب بالذى يحصله فى صباه ، وبالقدرة والخبرة اللتين  
يكتسبهما فيه .

وجعلوا بين الشباب والكهول خصومة ، لا تجد خصومة  
مثلها ، ولا فى مثل حديثها ، فى أمة من الأمم . ودخلوا بالسَّعاية  
بين الأبناء والآباء ، جموحاً بالأفلام ، واسترسالاً فى البغى ،  
ومذاقضة للطبيعة ، حتى حسب النشء أن مطالب العصر ، وحوامج  
الإصلاح ، يجب أن يسبقها تحضير الأكفان ، وحفر القبور ،  
وشق اللحود ، ليكفّنوا ويدفّنوا ويواروا عن الدنيا كل من خانها  
الحظ من الرجال فاستطال به العمر إلى الخمسين أو الستين . ونسوا  
أن من هؤلاء أمهات لهم وآباء . ونسوا أن هذا لو كان من خير  
الحياة ما أغفلته الطبيعة ، ونسوا أن فترة شبابهم بحكم الزمان  
قصيرة ، وأنه لا يلبث طالبٌ منهم أن يكون مطلوباً ، وكافٍ  
منهم أن يكون مكفوناً ، ودافن منهم أن يكون مدفوناً .

لقد كدنا نخال من كثرة ما سمعنا أن الشباب عَلمٌ على جنس  
قائم بذاته ، وعلى حدّته ، وما هو إلا دور فى حياة جنس واحد  
من أجناس الأحياء يُعرّف بالجنس الإنسانى . ومع الدور  
أدوار ... فدور الطفولة يأتى من بعده صبا ، فيفاة ، فشباب ،  
مفرجولة ، فكهولة ، ثم شيخوخة . ولو أن المرء إذا بلغ شبابه

استطاع أن يوقف هذه الكرة الأرضية فلا تدور ، وأن يطلب  
إلى الشمس أن تثبت في سمائها فلا تغيب ، إذن لركعنا للشباب  
وسجدنا ، وسبحنا وتجدنا ، وأحرقنا البخور ورتلنا التراتيل .  
ولكنه على الأسف الشديد ساعة واحدة متزايلة في نهار  
العيش ، وكل نهار أوله شروق وآخره غروب .

## قلوب كبيرة

في العصر الإغريقيّ  
القديم ، رأى الناسُ حكمياً  
من حكمائهم يمشى في الطريق ،  
وهو يحمل مصباحاً ، والمصباح  
يُضيء . فسألوه : ماذا تصنع

قال : الرجل الذي كبرُ  
شأنه ، فلم يَعدْ يخشى عليه .  
أن يصغر .  
قلت : أو يدوم للقلب .  
الكبير كبره ؟

بالمصباح والشمس  
طالعة ؟ قال :  
أبحث عن رجل .  
وأنا بدوري ،

قال : ما دامت  
ثِقَتُهُ ، فكبر  
القلوب عِمادته الثِقَةُ .  
بالنفس .

إن الدنيا لا تزال بخير .  
وإنه لا يزال للعمل  
الفخم الجميل مساكن  
في أفئدة رجال ونساء

\*\*

قضيت أشهراً أبحث عن  
رجل ... عن رجل ذي قلب  
كبير .

ورحت عن صاحبي .  
هذا ، لألقى صاحباً يمارس .

التعليم في جامعة .

\*\*

صهرت بصاحب يُمارس  
الحكمة ، فسألته : ما الرجل  
ذو القلب الكبير ؟

قلت : حدثني عن قلب .  
كبير لِقِيَّتِهِ .



قال : في قديم الزمان أم حديثه ؟

قلت : ما أنت والزمان القديم .

قال : الفقراشي رحمه الله . مات طبّاخه بعد خدمة دامت عشرة أعوام ، فمشی في جنازته مع الماشين يُشّيعه إلى قبره . وسئل في هذا ، فلم يفهم ماذا قصد السائل بسؤاله .

\*\*\*

واقيت معلماً إلزامياً ! فسأله :

— ما القلب الكبير ؟

قال : قلب الرجل الذي يعيش اليوم على الفستق والفألودج ، ثم لا يفتأ يذكر أيام العدس والفول .

قلت : من هذا ؟

قال : السيد فلان . هو اليوم ذوجاه طويل وثراء عريض ، وكان عندما هلّ هذا القرن فقيراً يفكره الناس . لم يغيّره مال ، ولم يذهب بهدوئه واتزانة نفوذ . لا تجلس إليه ، غنياً كنت أو فقيراً ، فتذكر النعمة ، حتى يأخذ يقصّ عليك قصة الفقر القديم والوضاعة السالفة . يصف لك كيف كان يطوى الليل جوعانا ، ويفترش الحصير ، ويرتعد من العُرى إذا حلّ الشتاء .

ويذكر ذلك في غير استحياء ولا استخذاء . ويحتم قصته فيقول :  
إنه ربّي أكرمني .

قلت : هذا كمن بن زائدة . أتاه البدوي يطلب عطاءه  
استفزازاً ، فأنشده :

أتذكر إذ لحافك جلدُ شاةٍ وإذ نعلك من جلد البعير ؟  
قال معن : أذكره ولا أنساه .

قال البدوي :

غسبجان الذي أعطاك مُلكاً وعلمك الجلوسَ على السرير  
قال معن : إن الله يُعزّز من يشاء ، ويُذلّ من يشاء .  
وعلى الرغم من هذا طلب البدوي من معن عطاءً فأجزله  
له العطاء .

قال المعلم الإلزامي : نعم هو ذاك . هو معن . فصاحبي الذي  
أنصف ذو عطاء . وفي كلّ جيلٍ معن ، وفي كلّ قبيل .

\*\*\*

ولقيت صاحباً قاضياً .

قلت : ما القلب الكبير ؟

قال : ذلك الذي يغفر حين لا تُرجى منه مغفرة .

قلت : فأى قلب هذا ؟

قال : قلبُ أبى . أساءت أمى إليه ، أولَ الأمر ، أكبر  
إساءة تسببها امرأةٌ إلى رجل . ثم جاءت تطلب الغفران في  
كبرياء ذليلة ، وعزّةٍ كسيرة ، وعينٍ دامعة . فغفر . فكانت له  
من بعد ذلك أطوع من بذانه ، وأخلص من نفسه لنفسه .  
ففتحت عيني دَهْشًا للذى سمعت .

قلت : است أدرى أى قلبينكما أكبر ، قلبك أم قلبُ  
أبيك ؟

قال : وما كبرُ قلبى ؟

قلت : طهر طهارة لم تتخش معها مقالة السوء .

قال : كان هذا منذ خمسين عاما . إن أصلاب الناس قديمةٌ  
مديدة ، تمتدّ إلى آدم . فأيتها سليم ، على بعد الطريق ، بما فى  
الطريق من أحوال وأقذار .

\*\*

وسألت امرأة شابة :

قلت : أى القلوب الكبير ؟

قالت : القلب الذى يفعل لنا الفعلة القليلة ، فيكون لها  
فيها أثرٌ كبير .

قلت : أى قلب هذا ؟

قالت : قلب ناظرتى القديمة ، الدكتوراة فلانة . دخلتُ  
الكليةَ أولَ عام . واحتفلوا لأول مرة ، فحضرتُ وليس لى  
فيمن حضرَنَ صاحبة أو صاحبٌ ، وأحسستُ حيناً إحساسَ  
السمة وقد خرجت عن الماء . فإذا بامرأة تقصد إلى وتقدم  
بيدها مصالحةً وهى تقول : أنا فلانة ، أظن أننا ما التقينا قبل  
الآن . لم تقل إنها الدكتوراة أو الناظرة أو شيء من هذا . وإنما  
طوقتني بذراعها ، وأخذتني إلى حيث وجدتُ الأنسَ من بعد  
وحشة . وصرختُ مرصاً خطيراً ، فدهشتُ أتمى لامرأة تاتى  
عند بابنا تستخبر عني ولا تدخل . فكانت هى ، جاءت ولم  
تسأ أن تُزعجنا . وازداد على المرض ، فذهلوني إلى المستشفى ،  
فكانت هى فى أول الزائرات . وتركت لى زهرات ، اشتريتها  
بقرشين أو ثلاثة ، بقيت منها عندي إلى الآن زهرةً تغل  
عندي ثروة .

قلت : وأين صاحبك هذه الآن ؟

قال : جفت كالزهرة التى احتفظتُ بها منها ، عليها وعلى  
حيلاتها رحمة الله .

\*\*\*

وسألت شاباً ممن نجحوا فى الحياة .

قلت : أى القلوب الكبيرة ؟

قال : قلوب الأشباح .

قلت : وهل للأشباح قلوب ؟

قال : نعم . مات والدى على حين غفلة . وكان كاسِبَنَا الأوحاد . فاضطُررنا إلى الانتقال من بيتٍ كبيرِ النعمة ، إلى بيتٍ محدود طعامُهُ ، محدود شرابهُ ، محدودة كِسوته . وكِدْنَا نَنكُصُ عن الحياة إلا رَمَقًا . وَبَغْتَةً يَأْتِينِي خطاب يذكر صاحبه فيه أنه صديق لوالدى قديم ، وأنه سيأتينا منه مبلغٌ قليل . يستمر ما بَقِينَا لا نسعى فى كشف أمره . وجاء المبلغ القليل فى انتظام غريب ، فكان لنا عَوْنًا كبيراً . فإنه على ضآلته تضمَّن عاطفةً عظيمة أعادت لنا الثقة فى الناس والأقدار . وقُبِّلَ امتحانِ الدبلوم بشهرين ، انقطع عنا المال الذى ظَلَّ يجرى خمسَ سنين . ونظر بعضنا إلى بعض ولم نقل شيئاً ، إلا دُمعةً جرت من عين أمى .

\*\*\*

وسألت من بعد هؤلاء أصحاباً وصواحب ، عن القلوب الكبيرة ، ما هى ، ومن هى ، وخرجت من السؤال والجواب مقتنعاً بأن الدنيا لا تزال بخير ، وأنه لا يزال فى الخلق لبعض



النفوس عِظَمُها وضخامتها ، وأنه لا يزال للعمل الفخْمُ الجميل  
مساكنُ في أفئدة بعض الرجال والنساء . وأنه لا يزال من  
الناس من يتلقى العمل القليل المجيد ، فيدرك أنه القليل المجيد ،  
فيلوِّكه ويتذوّقه . ورجعتُ عن نفسي وعن الحياة راضياً .

وزاد في رضاي أن حكيم الإغريق ، طلب الرجل قديماً ،  
ومصباحه في يده ، فلم يجده . وطلبتُه أنا ، حديثاً ، وبغير  
مصباح ، فوجدته . ووجدتُ مع الرجال نساء .

## خواطر . . . عند الخلاق

نعم ، عند الخلاق . ولن  
تجد الفكرَ ينطق انطلاقاً  
كما ينطلق عند حلاق . ففي  
أى مكان عند غير الخلاق  
بالسبق شفرات السكاكين  
والسواطير والسيوف . جَرَّةٌ  
واحدة من يد الخلاق ،  
لا يتحرك خلفتها ونعومتها

تَسْكُنُ هذا  
السكون ، ولن  
غير الخلاق تُسَلِّم  
نفسك هذا  
الإسلام . وتُسَلِّمها

ونظرت إلى يسارى ،  
فوجدت رجلاً أصلع ،  
له لحية حجبت وجهه .  
خطأ بسيط في التوزيع ،  
أنتج وجهاً كرأس ،  
ورأساً كوجه .

ونظاقها حتى  
المسواء ، يَجُرُّها  
في هذه الرقبة التي  
أمسك بها بشماله ،  
وأعمل فيها الموصى

لمن ؟ لرجل في يده مُوسَى .  
وهل تدري ما الموصى ؟ إنه  
ليس موسى الكليم . وإنه  
ليس بسكين ، وليس بساطور ،  
ولا هو بسيف . إنه شيء  
خو شفرة تُطأطأ لها إقراراً  
بيمينه ، جَرَّةٌ واحدة تحتم في  
سرعة البرق هذه الحياة التي  
كثيراً ما شاقني أن أعلم كيف  
تُخْتَم . وعندئذ قد يفسح لي  
الوقت ، أو لا يفسح ، لأعلم  
أن حياتي قد اختتمت على

هذه الصورة الرائعة الصارخة . وهي ليست صارخة ، لأنى سأصرخ فيها ، فهيات الصراخُ مع موسى . ولكن ستصرخ الجرائد في الصباح التالى ، لا تقديراً لقيمة المرحوم ، ولكن فزعاً من هذا السلاح الذى خرج صرّة عن عادته ، فجرى فى الجلد قائماً غائراً ، وقد عود الناس أن يجرى عليه زاحفاً ، فى زحقة مهتد لها من انبسط فى طريقه من رغاء كثير .

وتصورتُ دكاكين الخلاقين وقد خلت فى الصباح التالى من زوارها . أو تصورت الزوار قد أقبلوا ، وأيديهم تتحسّس رقابهم .

وصحوتُ من هذا الخاطر فوقمت عيني على وجه الخلاق فى المرأة ، فوجدته يتسم . ولقد كان ابتسم من قبل فما اهتممت لا بتسامته . ولكن هذه الابتسامة ، بعد حديث موسى ، جعلتني أعود فأنظر فى وجهه ملياً . أهذه ابتسامة رجل عاقل ، أم هى ابتسامة مجنون ؟ وتراءى لى أن الرجل عاقل ، لا شك فى هذا . فحيمدتُ الله . ولكن لماذا هذه الابتسامة التى جاءت فى غير أوانها ؟ لعلها ظاهرة إيحائية . انتقال فكرة من رأس إلى رأس . وقلت : فكرة كهذه قد تلح على رأس الخلاق العاقل إلحاحاً

فتجعله يفعل كما يفعل المجانين . واسكني طردت الخاطرة من  
رأسي وقلت بُعداً لك من خاطرة .

\*\*\*

ألا ما أسرع ما تتوارد الخواطر عند الخلاق . لقد أقنعني  
تواردها بالقضية الفلسفية التي تقول : إن الطبيعة لا تقبل الفراغ .  
ونظرت في المرأة ، فوجدت عن يميني جاراً ، قام عليه حلاق  
آخر . فقلت : فكّر في جارك فالتفكير فيه أسلم عاقبة . ونظرت  
إليه ازوراراً ، فإذا صاحبنا الحلاق يقص رأس صاحبه ، يقص  
شعر رأسه ، فتجلت لي صورة رائعة من صور التعاون بين الناس .  
فلولا هذا التعاون ما استطاع أحد أن يقص شعر رأسه . لا بد  
في هذا العمل من فاعل ومفعول ، ولا يمكن فيه أن تكون  
أنت الفاعل والمفعول معاً . فأنت قد تتعلم أن تحاق ذقنك ،  
وأنت قد تتعلم أن تقص أظافرك ، وأنت قد تتعلم أن ترى حتى  
قفاك . ولكن قص الشعر لا بد له من رجل يحمل الشعر على  
رأسه ، ورجل يحمل المقص في يده .

وقص المقص عن يميني قصفة من بعد قصفة ، وعددت  
القصفات فكانت مائة . فقلت لقد فعل الخلاق بالرجل  
المسكين ، ما فعل الخلاق الباجيكي ، برأس أحمد أمين .

ذهب أخونا الدكتور أحمد أمين بك إلى باجيكا ليحضر مؤتمر المستشرقين ، وشاء شعر رأسه أن لا يبالغ أشدّه إلا في هذا البلد الأمين . وعنها ونزل إلى الحلاق . وسأل الحلاق بالفرنسية . وأجاب أحمد بك بالإنجليزية . ولو أنه أجاب بالعربية ما أحدث ذلك فرقا . وأجاب حينما بنعم ، وحينما بلا ، وقد أسلم أمر نفسه ورأسه لله . وعاد إلى الفندق برأس ، ما وقع عليه بصر أخينا الدكتور عبد الوهاب عزام بك حتى أثاره ذلك إلى قول الشعر . فقال أبياتاً أذكر منها بيتاً :

ونظر الأستاذ في المِراية فلم يجد في رأسه شعراية  
أقول ، قصف صاحبي الحلاق الذي كان عن يميني بقصته  
مائة قصفة . ونظرت ، فلم أجد رأس الرجل تغير كثيراً . وقالت :  
أسمع قعقة ولا أرى طحما . وسألت . فقيل لي إن أخذ القليل  
على المرات الكثيرة لزينة الرأس أسلم . فقلت ما أباغها حكمة ،  
لو طبقت في مجالات الحياة الأخرى . القليل القليل ، ثم انظروا  
ما صنعت يداك . أما الكثير الذي تتخطى به الحدود . فقد  
يكون منه فساد ليس إلى إصلاحه - بيل .

\*\*\*

ولاحث نظرة منى إلى يسارى . في المِراة طبعاً . فتمالك



أن قلت : تبارك الله جلّت حكمته . رجل أصلع ، ومع هذا له  
 لحية حجبت وجهه ، حتى خلّتها لحية مستعارة . خطأ بسيط في  
 التوزيع أنتج كل هذا . أنتج وجهاً كرأس ، ورأساً كوجه .  
 وأخذت أحاضر نفسي في سوء التوزيع وعلمه ، وما جرّه على  
 الناس من بلايا . وذهب بي الفكر في هذه الناحية بعيداً . ذهب  
 بي إلى سوء توزيع المؤن في حرب ، وذهب بي إلى سوء توزيع  
 الثروة في سلم وحرب ، وذهب بي إلى تلك المبادئ الجديدة التي  
 تريد أن تهدم ما نحن فيه ، فذكرتُ بها الروس . ومن الروس عدت  
 من جديد إلى ذكر الله . فعلت أن الفكر ، كالأرض ، دوّار .  
 وبذكر الروس ، وبذكر لحام ، ذكرت أجيالاً من الزمان  
 كانت الله لها فيها دولة ، ولها صولة .

وكانت شارة الذكورة . حتى إن هيرودوت مؤرخ الإغريق  
 القديم ، رأى شعباً ليس لذكوره إله ، فعجب ، وقال : إن  
 الله جزأهم بأعمالهم شراً ، فجعل رجالهم كالنساء .

وأرسل الإغريق ، وأرسل الرومان ، وأرسل البابليون  
 والآشوريون والفينيقيون ، أرسلوا جميعاً لحام وشذّ المصريين .  
 فكان حاق الوجه والرأس سنة الكبراء . ودخل يوسف  
 على فرعون ، فحاق ، وحلق معه أهل البلاط جميعاً . وكان يوماً  
 للعلاقين مشهوداً .

وكانت اللحية ، في الشرق عامة ، منذ كان الشرق ، مناطَ الشرف ومَلَس الكرامة في الرجال . كان إذا أراد رجل إهانة رجل ، شدّه من لحيته . وإذا أراد قوم أو أراد سلطان فضح رجل ، والتشهير به حلقوا ذقنه غصباً وحملوه بين الناس . وكان الرجال عند الحزن يحلقون لحاهم طوعاً ورؤوس . وخالف المصريون الناس ، فهم إذا حزنوا أرخوا لحاهم وأرسلوا شعورهم . وكان إذا مسَّ أحد القدماء ذقنه الطويلة العريضة ، يمسحها بكفه ، ثم يمسحها ، علّمت أنه سوف يقول قولاً حكماً .

وحرب قامت بين التتروهم لا لحية لهم ، والفرس ، وهم أهل لحي ، من أجل أن الفرس أبوا ، وهم الشعب المسود المحكوم ، أن يذهبوا بلعاهم ، وهي في ذلك الزمان شارة السيادة .

وغزا الرومان بريطانيا ، وكانوا قوماً حليّتين . وغضبوا أهلها على الحلق ، فكان منهم من فضل الخروج بلحيته عن بلده ، وآثر النفي مع النجاة بهذه الخصلة العزيزة مما تُنبت الذقون .

والإسكندر الأكبر أمر جنده بحلق اللحي ، وعلّل ذلك بأنه لا يريد العدو أن يمسكهم منها .

وقيل إن سليم الأول كان أول خليفة حلق لحيته . وسأله وزيره الأول في ذلك ، فقال : حلفتُ لحيّتي كي لا تجرّني أنت منها يا وزيرى العزيز .

وبطرس الأكبر ، قيصر الروس ، أفزعه شيوعُ اللّحي في  
 قومه ، مع ضخامتها ، وتخفيفهم وراءها ، فأمرهم بحلقها ، وفرض  
 عليها الضرائب يدفعها من اعتزّ بلحيته فأراد أن يُبقى عليها .  
 وفي إنجلترا ، في عهد غير بعيد ، جعلت الضرائب على  
 اللّحي وجعلت درجات بطول اللّحي وقصرها . ولكن  
 الضرائب لم تغلح عند ذاك في إنجلترا ، فظل أهلها يحملون لحام ،  
 ودفعوا الضريبة عن طَوَاعِيَةٍ .

\* \*

وأيقظني من هذه الخواطر المتلاحقة صوت يصيح بي :  
 نعمًا !

وصحوتُ ، فإذا هو صوت الحلاق .

قلت : أنعم الله عليك وعلى أصحابك ، الزاهبين منهم  
 واللاحقين .

وقمت عن الكرسي العتيّد ، أحرّك رجلاي من جمود  
 أصابهما من طول القعود .

## للزعامات عورات ، فاستروها

يحكى الإنجليز فيما يحكون ،  
 أن ثلاثة أعضاء ، في مجلس  
 النواب البريطاني ، تلقوا على  
 انفراد ، في صبيحة يوم ،  
 برقية من مجهول يقول فيها :  
 اللعبة انفضحت !  
 فما أضحى ذلك  
 اليوم ، حتى كان  
 الثلاثة قد اختفوا ،  
 ويبحث أصدقاؤهم

ولست أحسب أن هذه  
 القصة قد وقعت حقا . وسواء  
 وقعت ، أو هي لم تقع ، فغزاها  
 مفهوم ، والغرض الذي رمى  
 إليه صاحبها معلوم . إنها  
 العقيدة الشائعة  
 عند الناس في ذم  
 الناس ، وجورها  
 هذا التوجيه  
 الخاص لينتدروا

ولقد أعرف كبيرا أو  
 زعيما ، وأسمع منه ،  
 وأقرأ عنه ، فأرى في  
 ثنايا كل هذا عثار  
 الرجل الذي خلق من  
 طين ، وحما مسنون

عن أثر لهم فلا يجدون .  
 واتضح بعد ذلك أن الذي  
 أرسل هذه البرقية ، إنما أرسلها  
 مزاحا ، فكان لها هذا الأثر  
 الغريب .

بها على فئة في الناس خاصة .  
 \*\*  
 وقصة أخرى ، مما وقع  
 حقا وصدقا ، سمعتها من  
 أمريكي :

أُسْقِفُ معروف بين قومه بالتقوى والصلاح ، وإلى جانب  
التقوى والصلاح كان منه كرمٌ وخير ، ومعمونةٌ للعاجزين  
والعاجزات ، وكان له عند الجميع احترام وفير . استيقظ يوماً ،  
وأفطر وتهياً للخروج ، ثم تمهل ليقراً بريد يومه . وقرأ : فهذه  
دعوة إلى حفلة خيرة ، وهذا رجاء لحضور مأدبة زاخرة ، وهذا  
قِسٌّ يدعوهُ إلى أن يخطب في كنيسته ، وهذا عينٌ يرجوه أن  
يترأس حفلاً لجماعته . ولكن خطاباً من بين هذه الخطابات هزته .  
هزّةٌ عنيفة . ولم يكن في الخطاب كلمات كثيرة . كان به :

لقد عرفوا كل شيء ، فأنجُ بحياتك .

ونجا الأسقف بحياته ، فلم يأت مساء هذا اليوم حتى كان  
قد اختفى .

وإلى اليوم يبحثون عن سبب هذا الاختفاء .  
قال قوم إنه كتابٌ في الحب الصريح ، استعار له اسماً غير  
اسمه ، وقال آخرون غير ذلك . ومهما يكن من أمر هذا الأمر  
الذى دعاه إلى الهرب ، فهو على التحقيق لا يأتلف مع وقار  
الأسقف ، ولا ما عُرِفَ عن شخص هذا الأسقف بالذات ،  
بحسبانه إنساناً ، من طيبة وكرم وخير .

ولم يقل لنا أصحابُ هذا الكتاب ، كتاب الحب المكشوف ،



متى كتبته كاتبه . أكتبه الأسقف الكهل ، أم كتبته الأسقف الشاب ؟ وحتى هذا لا يغير من الحكم شيئاً ، ولا يرفع محتوم القضاء ، فالأسقف ينتظر الجمهور منه أن يكون أسقفاً في شبابه ، وفي صباه وفي طفولته ، وإلا فهو ليس جديراً بالمنصب الرفيع الذي يشغله .

\*\*\*

وأنا وأنت أيها القارئ ، ماذا يكون حالنا إذا أتى آت يفتش في حاضرنا عن « لعبة » يفضحها ، أو يفتش في ماضينا عن كتاب في « الحب المكشوف » كتبنا .  
لا تلبس لي الجُبَّةَ بأكمامها الضافية ، ولا تضع على رأسك العمامة الكبيرة بلفائفها البيضاء الزاهرة ، لتقول لي : إن حاضرك أصفى من ماء المزن ، وإن ماضيك أبيض من ندائف القطن .  
إنك لو كنت كذلك ، وكنت أنا كذلك ، وكان الناس كذلك ، ما كان هيباك شُرطة ولا كانت نيابة ولا كان قضاء ولا كان قانون .

هذا فيما يختص بالدنيا . فيما يختص بأشياءها التي تُرى وتضبط وتفتش . دغ عنك تلك الأشياء الأخرى التي يقوم عليها دون العين حجاب ، ويطلبها الفهم فيُسد في وجهه من دونها باب ،

والتي تختص بها الآخرة تحقيقاً وقضاء وحكماً ، تلك التي عزّت  
على القانون فكان من أجلها في الدين عقاب ، وكان ثواب .

إنه يجب علينا أن نعترف أولاً أن في الناس جريمة ، وفي  
الناس جنوحاً إلى جنحة ، وفي الناس حبّ الحرام . ثم بعد هذا  
الاعتراف يجب أن نعترف اعترافاً آخر هو لهذا الاعتراف  
الأول استكمال واستتمام . يجب أن يعترف أن الناس يجب أن  
تتعاون على إخفاء ما في أنفسهم الناس من جريمة وجنحة وحب  
للحرام . إنه السّتر الذي يطلبه الناس كلما دعوا ربّهم : يا ستر !  
وقد يستر الله خَلَّةً من تلك التي هناها الشاعر حين قال : -

رأى خَلَّتِي من حيث يَخْفَى مكانها

فكانت قَذَى عَيْنِيهِ حين تَجَلَّتِ

وقد يستر الله عورة ، وقد يستر الله حرمة . ولكن أ كبر  
ما يدعو الناس الله فيه أن يستر خَلَّةَ النفس وعورتها وزلتها .



وإن احتاج الأصاغر لهذا السّتر بعض احتياج ، احتاج  
الأكابر له أشد احتياج . إن الرجل الصغير افتضاحه لا يكاد  
يُسوء أحداً غير نفسه . ولكن افتضاح الرجل السيد الكبير  
يُسوّء إلى البيئة التي هو كبير فيها ، ويُسيء إلى المعاني السامية

والمُثل الكاملة التي أودعها الناس في هؤلاء الأكابر الأسياد .  
وأكبر الأكابر الزعماء ، إن الجماهير لا بد أن تعبد ، وهي  
تعبد الله . ولكن الله بعيد ، أو هكذا هم يرونه ، والزعيم قريب ،  
والناس تحب أن تعبد القريب الذي تراه العين . من أجل هذا  
يجب أن نطهر الزعماء أكبر تطهير ، وأن نطهر منهم الأنفس  
كل يوم ، كما نطهر الأجسام الإنسانية التي لا يفتأ يخرج منها  
كل يوم ما يحتاج إلى عناية ورعاية .

وأنا إن طابت الستر الأحياء من الزعماء ، طابت الستر  
الأكبر للأموات منهم ، أولئك الذين ذهبوا في التاريخ مثلاً .  
وهذا أيسر ، لأن طهارة الأموات لا تكون إلا مرة ، ثم لا يأتي  
بعد ذلك كل يوم ما ينقضها . إن الزعيم الميت في كل أمة ، أقرب  
الأشياء إلى الصنم . والحجر تغسله فلا ينفي لك غسلاً ، وتلبسه  
الحريز وتصنغه بماء الذهب وهو لا يرفض لك أمراً . وأنت  
تضع على فم الحجر ابتسامة فتعيش إلى الأبد . وأنت تُودع وجه  
الحجر ما تشاء من معاني الطيبة ، وسياء الطهارة ، ورضاء الضحية  
وتسليم الشهيد ، فتحيا على الأحقاب ، وتُطلّ على الناس كلما  
تجددت الناس وتجددت القرون ، فلا تزيد الحجر إلا قداسةً ،  
ولا الناس إلا تقديساً .

واقدا عرف كبيراً أو زعيماً ، وأسمع منه ، وأقرأ عنه ،  
فأرى في ثمايا كل هذا عِثار الرجل القاني الذي لم يُخَلَق لبقاء ،  
الرجل الذي خَلِق من طين ، وحمياً مسنون . وأشمّ منه رائحة  
الحمأة ، فأتقبلها على أنها من بعض صفة هذا الطين ؟ ولكن  
ما هكذا الناس ، وما هم بمستطيعيه ، وما هم لو اطلعوا عليه  
بمُحِبِّيه . إن الحمأة يجب أن تُضَمَّخ بالعطر لتَسْطَعَ منها في أنوف  
الناس رائحة اللؤلؤ والياسمين ؟

فعلى الزعماء أن يُعينوا الناس على ما هم فيه ، وأن يُعينوا  
الكتاب فتجري أقلامهم بالصدق كثيراً وبالكذب قليلاً ،  
وأن يُعينوا الفنانين ، صُنَّاع الأصنام ، على أن يُصوِّروهم في  
الحجر ، من بعد ذهابهم ، صوراً فيها الكثير من الأمانة  
والقليل من التزييف والتمويه ؟

تعلمت حكمة ...

## من حمار وجزرة

وقد أردتُ أن أقول : وكذلك يحتجّ الوضع على  
من جزرة وحمار ، ولكنى عطفت على الحمار فقدّمته ،  
لما بيننا وبينه من قُرْبٍ ، عمل المصادفات ، لا يسبقها

تقديرٌ ولا تدبير .  
فَنُظْفَةُ الْفَقِيرِ جاز  
أن تخرج من  
صُلْبِ غَنِي ،  
ونُظْفَةُ الْوَضِيعِ

إن لجل منا له أيام  
ثلاثة ، يومه ، وغده ،  
وأسه وهي كالثلاثة  
الأبناء يبذلها الأب من  
فكره وذكره نصيباً  
واحداً

هي أقرب إليما  
من قرى الجزر  
في جدرل الأحياء .  
ولست أدري  
كيف نشأت

هذه العادة الظالمة عند الناس .  
إنهم ينظرون إلى أسفل دائماً  
كلما نظروا إلى الحمار . ينظرون  
إليه نظرة احتقار وامتهان .  
إن الفقير يحتجّ على الغني ،  
جاز أن تخرج من صلب رفيح .  
وكذلك الغني جاز في حكم  
الأقذار أن يولد في بيت  
بالتعاسة مرقوم ، كما جاز في  
حكم الأقذار أن يولد الرفيح

فى بيت بالوضاعة موسم .

وإذا نحن مَدَدْنَا هذا المنطق فخرجنا به عن الدائرة الإنسانية ، إلى الدائرة الحيوانية ، لقلنا إن المخلوق الذى يولد إنساناً ، جاز فى حكم الأقدار أن تكون نطفته نطفة حمار ، كما جاز أن تكون نطفة الحمار نطفة إنسان ، كما جاز أن يكون قرداً أو فأراً ، أو حتى جزرة : كلها تأتى بالتوالد ، وعلى قوانين ، على بعد الحقول التى تعمل فيها ، متشابهة . إنها نظرة ديمقراطية ، تتمثل فيها نظرة المستقبل الذى هو لا بد آت ، يجب أن يحسب الإنسان حسابها من الآن .

وعلى اختلاف الأوضاع الحاضرة ، وتباين القيم ، فلا شك أن كثيراً من المفكرين أدركوا ما يجمع بين الإنسان والحمار من أشياء عديدة . خذ مثلاً الطعام . إن الحمار يأكل البرسيم ونحن نأكل الحلبة والفلوخيّة ، وهو آكل الحلبة والفلوخيّة ، لو أنه استطاعهما ، فنحن الألى نمنعه منهما ، ونحن نأكل الفلوخيّة ترفعاً عن البرسيم ، ولو شئنا لأكلناه . وأعرف من أكله مطبوخاً فاستطعمه ، حتى عرف أنه البرسيم ، فبرزت صِلَتُهُ بالحمار بروزاً غير محمود . والتّبن يأكله الحمار ولا يأكله الإنسان ، لأن الأول يستطيع هضمه ، ويمجز الثانى : وهذه ميزة للحمار لا بد أن

نضيفها إلى جدول فضائله . ومن فضائله أنه لا يكاد يوجد طعام يأكله الإنسان لا يأكله الحمار ، إلا أن يكون لحماً ، وفي هذا يمتاز عنا الحمار لأنه يتعفف عن أن يأكل لحم زملائه في الحياة : أما نحن فنأكل كل لحوم الزملاء في الحياة ، ونأكل حتى لحوم الإخوان في الجنس ، ومن القبائل الإفريقية من يأكلون شيوخهم ، ويأكلون مرضاهم ، وتسألهم في ذلك فيجيبون : « منطوق لا منطوق » بعده . إنهم يقولون إن الشيوخ للفناء ، والمرضى للدود ، ونحن أولى بهذا اللحم من الفناء ، وأولى به من الدود . فبالله عليك هل تجد في هذا المنطق ما يُعاب ؟ إنه لا شك جائز في حكم العقول ، وواقعٌ موقعاً طيباً فينا ، تقتضيه فروضُ الاقتصاد وقوانينه في هذه الأيام . فإن كان في الأحمر عيبٌ ينزل بها عن مرتبة الإنسان فهي أنها ليس لها من العقل ما تدرك به جمال هذا المنطق .

وكشبه في الطعام ، تجد أشباها عديدة بين الحمار والإنسان في الأجسام .

وكذلك تجد أشباها عدة في الطباع .

\*\*\*

ولكن الشبه الدقيق الذي أكتب من أجله ، تراءى لي عندما وجدت ولداً من « أولاد البلد » يضحك على حمارٍ بجزرة -

كان الحمارُ حمارَه وكانت الجزرة جزرته . وكان مع الولد عصا طويلة وضعها على عنق الحمار ، وضعها بطوله ، ثم ربطها بعنقه ، فامتدت أمام رأسه متراً . فربط في طرفها ، أمام عين الحمار ، جزرة . وراها الحمار تتأرجح أمام عينيه فأسرع في الخطأ لينالها . ولكنها لا تقترب . إنه كلما أسرع أسرع ، وكلما أبطأ أبطأت ، والمسافة بين فمه وبينها دائماً واحدة . ولكنه ظل يدأب .

وستضحك وتقول ما أغباه ! أليس هذا حماراً ؟

وسأضحك وأقول ما أغباه ! إنه لا شك حمار .

ولكن كم من الناس من على رأسه مثل هذه العصا ؟ وكم من الناس من تتراقص أمام أعينهم مثل هذه الجزرة ؟ وكم منهم من يُصبحون ويضحون ، ويمسون ويباتون ، ينظرون إلى الأمل الحلو الذي لا ينال . وهم يسمعون ويسمعون ، والأمل الحلو يبعد عنهم اليوم بُعدَه في أمس ، ويبعد عنهم غداً بُعدَه عنهم اليوم .

\*\*\*

عرفت رجلاً بدأ حياته اجتهاداً ، ونصب لنفسه غاية أن يكون في يسر من حاله ليرتاح من بعد ذلك . وظل يعمل فيكسب . وظل يكسب فيقتصد . ومرت السنين فتراكت عنده ثروة حسبتها هي غايته . فإذا بالغاية تزيد كلما زادت الأيام ،



وتبُعد كلما بعدت الأيام ، وعلى قدر ما بعدت . وإذا الرجل على حاله الأول من الدأب ، وعلى حاله الأول من الكسب ، وعلى حاله الأول من التوفير والتقتير . وعلى أمله الأول في بسر حال قد توفر يُسرّها ، وعلى طلبه الأول لراحة قد تيسرت له كل أسبابها .  
مثل هذا الرجل يعيش ليوم لا يمكن أن يحىء ، ويجرى وراء جزرة لا يمكن أن تُنال .

مثل هذا الرجل يعيش في حاضره ، ولكن لمستقبله . وقد يحىء المستقبل المطلوب المرغوب ، ولكنه لا يلبث أن يحىء حتى يصبح حاضراً ، له من بعده مستقبل جديد بعيد ، وهكذا دواليك .

ومثل هذا الرجل الذى تعودت عينه النظر إلى أمام ، إلى الأفق البعيد ؛ يغمب عينه ويجهدها أن تمثني ، فتنظر إلى ما بين أرجلها .

أو هو قد طلب غايةً ، واتخذ لها وسيلة . وكان يحسب اللذة في بلوغ الغاية ، وإذا به يجدها في سلوك الوسيلة . فأصبحت الوسيلة بذلك غاية في ذاتها ، ومنع من الغاية الأولى أن تكون غايةً ، أن الصراع ينتهى ببلوغها .

أو هو طاب السعادة لينغم بالسعادة ، وفي دخيلة نفسه غير

الواعية أنه لا يريد سعادة ، ولكنه يريد أن يأمن غدر الأيام .  
فيقضى أيامه ولياليه يحضر لمعركة الأيام ، فيجمع العدة ، ويذخر  
الذخيرة ، لحرب لا تكون أبدا .

هذا رجل قد غفل عن يومه الغده .

\*\*\*

ومن الناس من يغفل عن يومه لماضيه . فهذا قد تعلقت  
جزرته ، لا أمامه ولكن خلفه ؛ فهو دائما ينظر إلى الوراء ، إلى  
حبيبٍ مضى يقطع عليه الأيام نحيباً ، أو عزيز انقضى يملأ قلبه  
منه أسى فلا يكون به مكان لشيء سواه . أو هو ينظر إلى  
الوراء ، إلى خصومة كانت لا تزيدها الأيام إلا ذكراً . أو إلى  
حفيظة وقعت ، لا تزيد الأيام نارها إلا حطبا ، فيصبح ويمسي  
وكل ما يطلب من الدهر نيل النار والتشقى . أو هو ينظر إلى  
خيمة كانت ففادت ، ولكنه يجعل من حكايتها حديث الحاضر  
الذى لا يفرغ .

إن الرجل نماله أيام ثلاثة ، يومه ، وغده ، وأمه . وهي  
كالثلاثة الأبناء يجب أن يبذل لها الأب من فكره وذكوره  
نصيباً واحداً ، فإن هو مال ، فإلى يومه ، يعمل فيه ، ويلتذ به ،

ويستمتع بالذي حضره من أسباب المتعة ، فلا يدع متعة حاضره  
رجاء متعة مُستقبله ، أو يأذن لغيرة كانت في أمسه ، أن تدخل  
إلى سماء يومه فتذهب بصفتها .

ما مضى فات والمؤمل غيب

ولك الساعة التي أنت فيها

## لذة الحرام

إلى الذى سألنى : كيف  
أكون طيباً ناجحاً ؟  
يا صاحبي فى أى عمل  
تعمل ، وأى تبعية تحمل .  
أقول ، بعد أن نظرت  
أكون محامياً ناجحاً ؟  
أطلب أسبابه ، وهذا كل  
ما يُراد منك ، وعلى الله من

بعد ذلك التيسير  
والتوفيق .

وإذا وفقك  
الله لتكون لصاً ،  
وهياً لك أسباب

وأنا أعيدك أن تسرق  
لأنك فى حاجة إلى ما  
تسرق ، فهذه سرقة تأتيها  
العامة ، وأنا لا أريدك  
أن تكون عامياً فى سبيلك  
إلى العلا !!

فى حظوظ الناس ،  
بل سألنى : كيف  
أكون لصاً  
ناجحاً ؟

إنى أكره الفشل فى  
كل شيء ، ويسـتهوينى  
النجاح دائماً ، ذلك أن النجاح  
فى ذاته لذة وحركة وضياء ،  
والفشل فى ذاته ألم وخمود  
السـرقة ، وأودع فى نفسك  
الكفايات العالية ، والصفات  
النادرة ، للنجاح فيها ، فلا  
تقنع بالقليل الحقير ، واطلب  
الكثير الخطير . إن المسألة

مسألة همة ، فلا تنزل بهمتك إلى الأمر الصغير ، وارتفع بها إلى الأمر الكبير . إني أحب الهمة أن تكون قصواء شماء ، كان ما كان ما تهدف إليه من أشياء .

وإذا سرقت فلا تسرق مباشرة ، ولا تسرق علنا ، ولا تسرق حيث يرك الناس فترتفع وراءك الأصوات . إن هذه هي السرقة في أخشن صورها ، وأكثر أشكالها ابتزالا وهي خشفة مبتذلة ، لحقت بك الكلابُ النابجة أو لم تلحق . أما السرقة التي أريد هالك فهي السرقة اللبقة . السرقة التي فيها كثيرٌ من الخفاء ، وكثيرٌ من الذكاء ، وكثيرٌ من الخدق والدهاء . السرقة التي يرتفع بها الخدق والذكاء إلى أن تكون فنا . إن امتداد يدك إلى الأمتعة والأموال ، هكذا في وضح النهار ، شيء يستطيعه كل إنسان ، فليس فيه ما يُعجب أو يثير ، ولكن غير ذلك سرقة الفنان . إن الفن يرتفع بالدنيء ، وبعلو بالخفيض ، ويجعل المستقبَّح المستهجن مستملاحا مستباحا . أنظر إلى العُرى . إنه شيء يأباه الناس ، ولكنه في يد الفنان ، وبريشته ، شيء تفتح له العيون وسعها ، وتمتلئ منه حتى ترتوى ، وتفعل ذلك إعلانا ، فلا خشية ولا ملامة . وانظر إلى الرقص . لو أن أراقصة خرجت بهذا الثوب الرقيق ، الذي خف حتى شفت ، إلى الطريق

لحلق عليها الداس ، وحلق البوايس ، ولكنها تظهر هكذا ،  
وعلى أرق من هكذا ، على المسرح ، وألوف الداس من الأكابر  
والأكارم ، مطمئنون في مجالسهم ، ينظرون ويستمعون . فما  
الذى غير الحال وبذل الأثر ، وجعل من الحرام حلالا ؟ إنه  
الفن ، إن في الرقص حذقا ، وإن فيه جمالا ، خرجا به عن  
حظيرة المستهجن المكروه .

وكذلك أنت في سرقتك ، تستطيع أن تجعل منها ، بالذى  
تودع فيها من حذق ومهارة ، فنا جميلا . واعلم أن الفن الجميل  
لا يتذوقه كل الناس ، إن هناك دائما أرسقراطية خلقت لتذوق  
الفنون . وللسرقة خاصة ، وهى فن جميل ، أرسقراطية من  
نوع ، تستطيع أن تقدر لك ما بذلت في مجهودك المشكور من  
حذق ومن مهارة ، وأن تلمح ما فيه من لمحات في الفن نادرة .

\*\*\*

وإني أعيذك أن تسرق لأنك في حاجة إلى ما تسرق ،  
فهذه سرقة عادية بآتيها العامة ، وأنا لا أريدك أن تكون عاميا  
عاديا في سبيلك إلى العلا . لا أريدك أن تسرق لأنك جائع ،  
ولا أن تسرق لأنك عارى . لأن الدافع هنا ، من جوع أو عرى  
دافع رخيص بدائى ، يدل على طبع بسيط . وإنما أريدك أن  
تسرق ، على الغنى وعلى اليسر وحسن الحال ، فهذه هى السرقة

الله ، لا لنفسك . ذلك أنك غير محتاج . إن السرقة عندئذ تكون للسرقة ذاتها وعمل الشيء لذاته هو أحسن شيء في الدنيا . ألم تر أن الحب قد يكون ل الشهوة ، فيُبتذل . ثم يكون لذاته ، يكون لغیر غاية ، فيُمتدح ، ويسمى عُذْرِيًّا . فأنا أريدك أن تمارس السرقة عذريةً كذلك . وأنت ، على السرقة ، مع الغنى ، تستطيع أن تحتل أي مكانة في المجتمع تريد ، وتذهب إلى أي ناد نفخ تحب ، وتحضر أي الحفلات تشاء . ولا تجد إلا ما يسرك . لأن الكل يعلمون أنك إنما تمارس هذا الأمر رياضةً وهوايةً ومعاذ الله أن يسيئوا رجلاً هاوياً رياضياً . وأكثر من يلقاك رياضيٌ صميم .

ولا يخذلك عن السرقة ، بحسبانها فناً راقياً ، ورياضةً حاذقةً ، زماناً أو مكاناً . ولا وضعٌ تكون فيه من الحياة . ولو أن السرقة بالطبع أيسر وأخصب وأكثر أدواراً في الموضع العالي : وهي بالكهولة أجدر منها بالشباب . فأكثر من أعرف من اللصوص المختارين الممتازين كهولاً . ذلك أن الكهل يكون قد اطمأن في الحياة ، ويكون قد اتسع له الزمن لإيجاد العلائق والروابط ، واحتلال المراكز العالية ، تلك المراقب التي يُشرف منها المرء على الناس ، فيراهم ولا يرونه ، ويكون قد اتسع له الزمن كذلك

لإذاعة الثقة من حوله وإشاعة الاطمئنان عند جمهور العامة للدين .  
لا يمكن أن يرتفعوا أبداً إلى مستوى يُدركوا فيه قيمة الفن في .  
مظاهره المختلفة ، دَخُ أن يُدركوه في السرقة ، وهي في أسمى مراقبها .  
نعم الجمهور . إنه عدو السرقة ، وعدو الفن ، فاحتط لنفسك .  
يا صديقي لدى الجمهور أيّ حيلة . أحط نفسك بقصة بارعة يشور  
لها الشعور وتشور العاطفة ، أشيع عن نفسك أنك من بيت مجد .  
عريق ، له في المجد ضروب وفي المراقبة دروب ، واترك تمام الانهضة  
لخيال الناس ، وللشائعات تسري فيهم . وعندئذ سوف يقول  
الناس إنه من بديهيّات الأمور أن يكون الثراء الكثير حيث  
توجد العراقة ويوجد المجد الوفير . وإن عزك هذا ، لأن دلائل  
كثيرة تقوم تدلّ عليه وتنفيه ، فأطابق من حولك الأقاصيص .  
تحكي ، بأنك جئت من البيت الفقير الوضع ، وأن أمك كانت  
تغلي لك الماء بالحصى ، وأنت طفل ، لتلهيك به عما بك من جوع .  
وعندئذ سوف يقارن الناس بين ماضيك وحاضرك ، فيقولون  
ما أبرع وما أبداع ! إن الناس تحب دائماً أن تسمع للمعجزات ،  
وأن ترؤى المعجزات . وأنت إن قلت لهم إنه ليس في الأمر معجزة ،  
فسوف لا يصدقونك . فدعهم بالمعجزات وذكروها ينعمون .  
فإذا حدث ما لا أرجوه لك أبداً ، فانفضح المستور ، وانكشف .



الخبىء ، وقال الناس هذا الصبي فأمسكوه ، فلاتهاع ، ولا تجزع .  
 أما الحاضر فسوف يتكفل به المال الوفير . وأما المستقبل فسيضمنه  
 لك قصر الذاكرة عند الناس . إن الناس تنسى ، وإن الجمهور  
 ينسى ، والحمد لله . وسوف يمتدحك الجمهور الذى ذمك ،  
 وسوف يرفعك فوق رأسه الجمهور الذى كان على الأرض .  
 خطأك ، وفى ترابها مرغك . والزمان الذى جرح سيعود فيأسو  
 جراحه ، ولن تجد كالزمان آسيا .

وأخيراً ، إذا فرغ بك العمر ، وتناهت بك الأيام ، وجاءك  
 جبريل يعقب ، فعذرُك والله حاضر ، قل له إنك ، مع كل  
 ما جمعت وعددت ، لم تأكل أكثر مما أكل السواد من  
 الناس ، لأنه كانت لك معدة واحدة ولم تكن لك معدتان ،  
 وإنك لم تلبس أكثر مما لبس الكثير من الناس ، لأنه كان  
 لك جسم واحد ولم يكن جسمان ، وإليك لم ترقد على غير سرير  
 واحد ، لأنه لم يكن لك غير هيكل من العظم واحد تُريحه  
 بالرقاد ، ولم يكن لك هيكلان . وقل له إني خلقت وراءك  
 مائة ألف كالف . فإن قال لك جبريل : فقيم كان كل هذا  
 الجمع ؟ فقل له : لذة الحرام ، يا جبريل ، لذة الحرام ، وفاق  
 الله شرها !

## دنياك ، لا تخشها أبدا

إنك تخشى دنياك ، عندما تُضحك ، ولا تختار  
ولكنك تنسى دائما أنه يخشاها عندما تبكي ؟ ولكنها على  
معك الناس طرأ . إنك تنظر كل حال مصدرُ البلوى  
إلى هذا الضاحك فتحسب بسبب هذه الريبة التي يحملها  
أنه يضحك للدنيا وأنت لها الناس ، وبسبب الخشية

التي تضمّنتها منها  
القلوب .

إن السارق  
يسرق ، فهل  
سألت يوما لم

إن ضحايا الفكر ، وضحايا  
العلم ، وضحايا الخير ،  
كفارات ، كالصدقة  
والصوم ، تكفر بها  
الإنسانية عن آثام من  
قعد وتخلف .

وحدك تبكيها ،  
وتنظر إلى هذا  
المستهمل في خطوه ،  
فتحسب أنك  
وحدك المستعجل

في طلبها ، وأنها أضعفته  
فاستأني ، وحبست عنك  
أنت وحدك فتمجّلتها . إن  
الدنيا لا تختار عندما تعطي ،  
ولا تختار عندما تمنع ، ولا تختار  
سرق السارق ؟ إن السارق  
يسرق في أكثر الأمر ،  
لا طمعا ، ولكن رهبا .  
وما للرهبه هنا إلا رهبة الدنيا  
التي مالت عليه أو أذرت

بأنها تُوشِكُ أن تَمِيلَ .

وإن الحاسد يحسد ، فهل سألت يوماً لم حسد الحاسد ؟ إنه يحسُد من سبق ، لأنه لا يكون سبقٌ إلا معه تخلف ، والتخلف يورث الحسد ، لأن معناه التقهقر في أمور الدنيا . وهو تقهقرٌ لو دام لاستقرَّ بصاحبه في الموضع الأخير ، حيث استقرَّ للعجز واستقرَّ الشقاء .

ولمثل ما سرق السارق ، وحسد الحاسد يتنافس المتنافس ، ويتكالب المتكالب ، ويتزاحم الناس بالمناكب ، وغايتهم مؤونة الدنيا التي يحسبون أنها لا بد فارغة ، ما تكو كب القوم عليها . وحرصُ الحريص من بعد غنى ، بدأ كما يبدأ الحرص كله ، بالخوف من الدنيا . والغنى المستغنى من بعد فقر ، قد يذكُر أيامه القديمة فيجود ، ويبالغ في الجود ، رحمةً ومؤاساةً لأشباه نفسه في الناس ، ولكنه على الأكثر يذكُر أيامه القديمة فيحرص غاية الحرص ويمسك أَيْمًا إمساك ، لأن خشية الدنيا تلاحقه ، ولأنه بالجود ، قد تعود وإن بُعد المدى أيامها السود .

\*\*\*

ومن خشية الدنيا خوفُ الخائف أن يقوم في الدنيا بنفسه فرداً .

فتحت المذبايح يوماً فامتلات حجرتى بأغنية فيها رقص  
وفيهما طرب ، وغدت المطربة الشهيرة أغنية الرعاة فإذا بها تقول :  
سلام الله على الأغنام . فاما لكت أن قلت : أى والله ، سلام  
« عليهم » وألف سلام !

إن الأغنام من أضعف خلق الله دفاعاً إنه قرن لا ينفع  
ولا يدفع إذا نشب مخالب أو عض ناب ، فهي لهذا ترى أمنها  
في التجمع والتجمهر . والتجمهر يُشعرها الأمن على الخطر ،  
ولو أمناً كاذباً . والبليّة في الجماعة على كل حال تهون .

وفي الناس من خلق الأغنام التحصن من الدنيا ، في التجمع  
والتجمهر . إن خشية الدنيا هي التي صنعت القرى ، وصنعت  
المدن ، وهي التي صنعت المجتمعات وصنعت التقاليد .

إن الفرد من في المجتمع ، لا بد أن ينسجم بالمجتمع ، وإلا  
انفرد فأكلته الذئاب كما تأكل الخراف الفريدة والمعاج .

\*\*\*

وخشية لدنيا هي التي خلقت من الرجال محافظين يحافظون  
دائماً على ما درجت عليه الدنيا من قديم . حُبَّتْهُمْ في ذلك أنها  
أمورٌ خبرناها ، وطُرُقٌ عبَدناها وأَمِنَّاها ، ولا يدري أحدٌ  
ماذا يَحِيقُ به إذا هو خرج عن الطريق المعبّد الأمين .  
إن الزارع محافظ لأنه يخشى الدنيا . إنه يزرع كما زرع

آبَاؤُهُ ، وَيَرْضَى مِنَ الْحَصَادِ مَا رَضَى آبَاؤُهُ . وَزَرَعُوا فَكَلَّمَا ،  
وَنَزَعَ لِيَا كُلَّ مَنْ بَعَدَنَا ، وَهَلِ أَمَاطٍ وَاحِدَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ أَبَدًا .  
وَالصَّانِعُ يَصْنَعُ كَمَا يَصْنَعُ آبَاؤُهُ لِأَنَّهُ يَخْشَى الدُّنْيَا . لَهَا بِضَاعَةٌ  
أَلْفَهَا السُّوقُ وَالْفَتْهُ . وَلَوْ أَصَابَهَا تَغْيِيرٌ أَوْ تَبْدِيلٌ ، لَضَلَّتْ سَبِيلَهَا  
إِلَى السُّوقِ . وَلَوْ جَاءَتْهَا ، جَازَ أَنْ يُنْكِرَهَا النَّاسُ ، فَيَحْقِيقَ  
بِصَاحِبِهَا الضِّيقَ ، أَوْ لَعَلَّهُ الْخَرَابُ . وَمَا أَغْنَاهُ عَنْ ضِيقٍ ،  
وَمَا أَغْنَاهُ عَنْ خَرَابٍ !

وَالْمُدْرَسُ وَالْمُهَذَّبُ ، وَبَائِعُ الْعِلْمِ وَنَاقِلُ الْفِكْرِ ، يَخْشَى الدُّنْيَا ،  
فَيُؤَدِّي وَاجِبَهُ كَمَا أَدَاءُ السَّابِقُونَ . عُذَّتْهُ الْكُتُبُ فَهِيَ إِرْثُ  
السَّابِقِينَ ، وَفِيهَا حِكْمَةُ الْقُرُونِ ، إِنْ قَالَ قَوْلًا أَرْجَعُهُ إِلَيْهَا ، أَوْ  
صَدَعَ بِرَأْيِ عَمَدَةٍ بِمَصُوصٍ مِنْهَا . وَالْعَقْلُ عِنْدَهُ قَدِيمٌ ، وَلَيْسَ  
عِنْدَهُ فِي الْإِمْكَانِ أَبَدٌ مِمَّا كَانَ . وَكَانَ أَصْدَقَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ  
نَفْسِهِ لَوْ قَالَ ، أَنْ لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ آمَنٌ مِمَّا كَانَ . إِنْ الْعَقْلُ إِذَا  
أَتَى بِجَدِيدٍ فَعَمَلِيهِ وَزُرْ جِدَّتَهُ ، فَالنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا اسْتَجَدَّ . فَفِي  
الْإِسْتِجْدَادِ الْأَذَى ، وَضِيَاعُ الدُّنْيَا ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ ضِيَاعِهَا ضِيَاعُ  
الدِّينِ . فَالْإِسْجَامُ إِذَنْ خَيْرٌ ، كُنْ مَعَ الْقَطِيعِ دَائِمًا تَأْمَنُ وَحَشَةً  
فَالْفَرْدِ وَأَذَى الطَّرِيقِ .

وَأَعْدَى الْأُسْتَاذِ طُلَابُهُ نَخَشُوا مِنْ أَذَى الطَّرِيقِ مَا خَشِيَ ،

فهم يحبّون أن يأخذوا الدروس تلقيناً ، ويحبّون أن يُعطوا  
نصوصها إملأ .

\*\*\*

إن الذى يترك الطريق المعبّدة ، إلى طريق غير معبّدة ،  
أو إلى صحراء لا طريق فيها ، رغبةً فيما هو خير ، واعتقاداً منه  
أنّ فى الإمكان أبداع مما كان ، قد يَطُوف من صحرائه مطافاً  
بميداً ، يرجو فى آخره ركائز الذهب ، فلا يجد إلا العطب .  
فاحتمال وقوع العطبِ هذا هو الذى أخلد بالناس إلى السلامة .  
إنها خشية الدنيا ، وخشية أن تُقلّب الراحة تعباً ، أو تنقلب  
الحياة مأتماً .

ومع هذا فلولاً أقوامٌ آثروا التعب على الراحة ، وقلق الحياة  
على استقرارها ، وتحذّوا المآثمَ أو تكون ، ما كان فى الدنيا  
تجديداً ، ولا كان لبني الناس تقدّم ، ولبقيت لهم ، من حيثُ  
النفعُ المحضُ ، رفاهيةُ الجحور الأولى فى الصخور . إن الدنيا  
تقدمت بالمغامرة ، وما غامر من خاف الدنيا . والمغامر ثوابُ  
العالم ، ومن أجرى العالم ، فى نجاح أو خيبة . إن ضحايا الفكر ،  
و ضحايا العلم ، و ضحايا الخير ؛ كفّارات ؛ كالصدقة والصوم ، تكفّر  
بها الإنسانية عن آثام من قعد وتخلّف ، وخاف الحياة وخشى الدنيا .

\*\*\*

وَأَقِيتُ صَاحِبِي فِي الطَّرِيقِ :

قُلْتُ : إِلَى أَيْنَ ؟

فَابْتَسَمَ وَقَالَ : إِلَى مَا تَحْمَدُ أَوْ لَا تَحْمَدُ ، فَهَلْ تَصْحُبُنِي عَلَى

الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ؟

قُلْتُ : أَفْعَلُ ، وَلَيْسَ قَضَاءُ اللَّهِ :

وَسَرْتُ مَعَ صَاحِبِي ، فَإِذَا الْغَايَةُ مَنْزِلُ لَامْرَأَةٍ تَكْشِفُ

الْحُجُبَ عَنِ الْغَيْبِ . وَكَانَتْ ذَاتَ صَيْتٍ وَسُمْعَةٍ حَسَنَةٍ . وَدَخَلَتْ

الْبَيْتَ وَأَنَا أَتَمَثِّلُ بَيْتَ أَبِي تَمَامَ :

تَخْرُصُ وَأَحَادِيثُ مَلْفَقَةٍ لَيْسَتْ بِذُبُعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبِ

وَوَجَدْتُ فِي الْبَيْتِ زَحَامًا . أَقْوَامًا عِدَّةً يَنْتَظِرُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهَا

دَوْرَهُ . لَمْ تَشْغَلْ ضَارِبَةُ الرَّمْلِ وَالْحَصَى بَالِي ، بِمَقْدَارِ مَا شَغَلَتْهُ

هَذِهِ الْوَجُوهُ الْقَلِقَةُ الْمَتَرَقِّبَةُ ، وَقَدْ عَلَاهَا صَفَرَةُ الْجَزَعِ وَشُجُوبِ

الْخَوْفِ . إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ دُنْيَاهُمْ أَوْ يَرْجُونَهَا ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا جَاءُوا

يَسْتَفْتُونَ . نَظْرَةً وَاحِدَةً مِنْ طَرَفِ السَّتَارِ تَكْفِيهِمْ ، وَتُطْمِئِنُّهُمْ

عَلَى الْغَدِ الْمَخُوفِ .

وَسَاءَلْتُ نَفْسِي : إِذَا انْكَشَفَ الْغَيْبُ ، وَشُقَّتْ كُلُّ

حُجُبِهِ ، فَمَاذَا يَكُونُ بَعْدَ انْشِقَاقِهَا ؟

يَنْكَشِفُ إِمَّا عَنْ مُسْتَقْبَلٍ أَسْوَدَ حَزِينٍ يَتَجَرَّعُ الْمُرَّ غُصَصَهُ ،

وَيَخْيا مرةً قبل أن يكون ومرةً حين يكون ، أو مستقبلُ أبيض  
زاهٍ يذهب انكشافه بالذى فيه من زَهْوٍ ولذى فيه من بياض -  
إن لذاعة الشيء اللذيذ يكون أكثرها في ترقبه ، وهى ألذُّ إذا  
وقعت من بعد شك ، وهى أشدُّ لذةً إذا وقعت من بعد يأس .  
وكذلك مرارة الشيء المرّ ، أكثرها في ترقبه . والبلاء تبكيه  
قبل وقوعه .

إِنِّ هَذَا الهَوَاءُ أَوْقَعَ فِي الْأُنْفُسِ أَنَّ الْحِمَامَ مَرَّةً الْمَذَاقِ  
وَالْبُكْيَ قَبْلَ فِرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزَ وَالْبُكْيَ لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

\*\*\*

غَدَّكَ يَا صَاحِبِي لَا تَخَفْ وَلَا تَحْذَرْ ، فَمَا يُغْنِي حَلَرْ مِنْ  
قَدَرٍ . اعْطِ لِسَاعَتِكَ نَعِيْبَهَا مِنْ عَمَلٍ ، وَخُذْ مِنْهَا نَعِيْبَكَ مِنْ  
مُتَمَّةٍ ، وَأَوَّلِ الْمَتَعِ رَاحَةَ الْبَالِ بِشِفَاءِ الضَّمِيرِ . فَاشْفِ ضَمِيرَكَ بِأَنْفِكَ  
عَمَاتِ أَقْصَى مَا قَدَّرْتَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَحَدَّ السَّمَاءَ مِنْ يَدِ ذَلِكَ أَنْ  
تُمْطِرَ الْأَرْضَ لَوْلَوْ أَوْ تَمْطُرَهَا حَمَامًا .  
ودنياك ، دنياك لا تخشها أبداً .



## عطشان يا صبايا !

بمدالبة كثيرة الأحداث ، شعاع ، فأقول هنا . فما أكاد  
مضطربة النوم ، قمتُ لأتنبّت أتمتته وأتمتته ، حتى لأجد  
من أن الشمس على عاداتها منه شيئاً . وأسائل نفسي ،  
طالعة ، وأن الحياة على سجيتها أكان حقاً ، فتقول لا كان  
جارية . وكان صباحاً من ولا يكون ، إلى حين ، وإنما

هو صورة لهُفان  
وحلم يقظان  
وأمنية المتمني .

وسمعت عند  
الخافة ، أو ما خلت

والخير والشر ، أين  
الحقيقة فيهما ؟ وأي  
المعاجم أفتح لتفسيرهما ،  
معاجم الدنيا أم معاجم  
الدين . معاجم ما كان  
ويكون ، أم معاجم  
ما يرجى أن يكون ؟

أصباح الشتاء  
البليّة العمياء ، بالله  
وأعماء الضباب  
الكثيف المتراعى .  
وخرجت أطلب

الشمس ، بين الريف والصحراء ، فوجدتني لأريد  
في هذا الماء إيغالا ، إلا لتزيد الشمس عنى احتجاجاً . ويتفقد  
إلى منها أحياناً على غيرة أنه الفارق بين الرمل الأصفر  
والحقل الأخضر ، قوماً بالغناء يصدحون . إنهم قوم من  
أبناء الصعيد على الحفر عاكفون ، كما حفر آباء لهم

من قبل ، من قرون وقرون . حفروا اليوم كما حفروا بالأمس ،  
ولغاية كتلك الغاية . وغنّوا اليوم كما غنّوا بالأمس البعيد ،  
ولكن بلسان غير ذلك اللسان .

كانت الأغنية « عطشان يا صبايا ، دأوني على السبيل »  
فقلت : « أي والله ، ما أحوجني ، بالذي أنا فيه ، إلى  
دليل على سبيل . والعطشُ أحسّسته في تلك الليلة الماضية .  
الثائرة ، وأحسستُ حاجةً إلى ارتواء » .

كان عطشُ هذه الفئة الميمونة إلى المرأة ، أو بهذا جرت .  
الأغنية المشهورة . وكان سبيلهم إلى ذلك الحب .  
أما طريقى إلى الحب فقد عرفته ، وأما عطشى إليه فقد ،  
على الحلال ، أزويته .

ولكن بقى لى عطش لا ترويه النساء ، وبقيتُ على  
ضلالة لا تخرج منها الأدلاء .

ذلك عطشى إلى الحقيقة ، وتلك ضلالتى عن سبيلها .

\*\*\*

فمن يدلتنى على الحقيقة فى الحياة ، لأى شيء تقمصناها . . .  
لماذا بدأناها أو نبداً ، ولماذا انتهينا منها أو ننتهى ؟ وإذا نحن  
انتهينا ، فلماذا نبداً ؟ وإذا نحن بدأنا ، فلماذا ننتهى ؟ وهل حافزٌ

خفى غامض يدفع إلى الحياة غير حوافز الجسم البيئنة الغارية ...  
غير حافزه إلى استنشاق هذا الهواء والمغالبة فيه إذا هو خف  
أو امتنع ، وغير حافزه إلى الطعام واستمرائه ، والحرب إليه ،  
إذا هو صوّح غصنه أو جفّ مورده ، وغير حافزه إلى إرواء  
شهوة ، تتولد من بعدها حاجة إلى إشباع لذة في احتضان ما ينتج  
عن تلك الشهوة الأولى من نتاج ، كل غايته وصل العيش  
وربط أسبابه ، ونسخ صور منه ، كما يُنسخ الكتاب من غير  
كبير تصحيح ولا تنقيح ؟

\* \*

ومن يدّنى على الحقيقة في هذه الدوائر التي يدور فيها العيش  
وتدور الأفلاك؟ الشمس تجرى في دائرة ، وفي دائرة يجرى القمر .  
وفي دائرة تجرى الكواكب والنجوم . والكثير من النجوم  
أقمار تدور منها في دائرة . إن الدائرة تسيطر على الكون .  
والأرض التي نحن عليها تجرى في دائرة ، فيتعاقب عليها  
الليل والنهار . والعيش على هذه الأرض قد اقتبس من دورانها ،  
فهو يجرى في دورة من بعد دورة ؛ فالنبات يعيش في دورة .  
والحيوان يعيش في دورة ، والإنسان يعيش في دورة ودوائر صُبّحه  
اليوم كصُبّحه بالأمس ، ونُضّاه اليوم كضّحاه بالأمس ، وبأَمسه

الأول وبغده ، وكذلك أمساؤه ولياليه . وكذلك شتاؤه وصيفه .  
وهو كنهاره ، يبدأ من ضعف لينتهى إلى ضعف . إنها نقطة  
الدائرة التي بدأ منها ، إليها لا بد أن ينتهى . ما السر في هذه  
الدائرة ؟ ما السر في هذه الدوائر ؟

والإنسان يَبْلَى ولا يَبْلَى الزمان : وهو يَقْدُم ولا يَقْدُم  
الجديدان . فهكذا سموا الليل والنهار . وعملوا ، فقالوا : إن  
الدائرة رمز الخلود وقالوا : إن الحلقة المفرغة لا تنتهى . وقالوا :  
إن الإنسان لا يخلد فرداً ، ولكنه يخلد جنساً ، وإن الجنس ،  
كالنهار وكالليل ، جديد خالد ، لأنه يجرى في دائرة . ونسوا أن  
الدائرة التي لا تنتهى قد تنقطع .

فأين الحقيقة في هذا ؟ دِلُونِي . . دِلُونِي !

\*\*\*

والحفظ ، أين الحقيقة فيها ؟  
طفلٌ يولد فلا يكاد يمر عليه حولٌ حتى يموت . وآخر  
يولد فيُعَمَّر حتى يسأم الحياة ويقول مع لمبيد :  
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش

ثمانين حولاً لا أبالك يسأم  
وتجمرى الناس في سنواتها ، فلا تدري في أية سنة تموت ،

ولا بأية أرض تموت ، ولا على أية حال . وذو صحة وقوة ينقطع  
خيطة على السلامة والطول ، وذو مرض وضعف يمتد به الخيط  
كأنما يصدر عن بكرة تترأى قليلة ، وفيها الطول ميل وميل ؛  
وطفل يولد فيورثه أبواه في العقل الفطنة ، وفي اللسان الطلاقة ،  
وفي الجسم البسطة ، وفي الخلق الدماثة . وآخر يولد فيورثه أبواه  
في العقل الغباء ، وفي اللسان الفهاة ، وفي الجسم القصر ، وفي  
الخلق الفظاظة . ومع هذا تقاس أعمالهما في الدنيا مقياساً واحداً ،  
وتوزن في الآخرة ميزاناً واحداً .

وظفلة تولد فيورثها أبواها عينا نجلاء ، وأنفاً مستقيماً ، وخداً  
أسيلاً ، وفماً صغيراً ، وعوداً رخصاً نحيلاً . وظفلة تولد فيورثها  
أبواها عينا كأنها ثقب في حائط ، وأنفاً أفطس كأنه أنف لقرد ،  
ووجهها تتوقف عنده لتحقق أوجه هو أم قفا ، وعوداً إذا حاول  
أن يتثنى ، صات كما يصيت الباب العتيق . الطفلة الأولى تسير  
من الحياة على أطرى من القطن وأرق من الحرير : والطفلة الأخرى  
تسير من الحياة على الأشواك امتدت طبقة من بعد طبقة . وتنعم  
الأولى لا لفضل أتمه ، وتشقى الأخرى لا لجرم جفته . وهان الأمر  
لو أن الجنة لا يدخلها إلا قبيحات الوجوه . ولكن أين الجنة من  
هؤلاء ، والقبح لا يؤدي في هذه الدنيا إلا إلى الكراهة والقمة

والنقمة لا تؤدي إلى العمل الصالح .

فأين الحقيقة في هذا ؟ دلوني . . دلوني !

\*\*\*

وحظوظ الحيوان ، على العبودية ، كحظوظ الإنسان على الحرية . فهذا حصان يولد للسباق فيجول في الميادين ويصول ، يملأ أذنيه التصفيق والتهليل ، ويأكل أشهى مأكل ، ويقبّع في أرحب مربط . وهذا حصان يولد وفي انتظاره الأثقال ليجرها ، كل ما يرجوه لحافره الشارع الممهد ، ولمعدته ألا تحسّ الجوع طويلاً ، ولأذنيه ألا تسمع سوط السياط كثيراً . وهذا كلب سيده في قصر ، فهو لا يعرف إلا نعمة القصور ، وهذا كلب سيده في كوخ ، فهو يجرى يطلب الرزق في أركان الطريق ، ومن القمامة في الصناديق ، كما يطلبه صاحبه تماماً . وقطة عند عانس تنام على الوسادة الوثيرة ، وفي عنقها الشريط الأحمر . . عَقْدَ حوله ، طرافة وأناقة وزهوا ، وقطة أخرى لا تعرف الدور إلا لتسرق رزقها الحلال ، ثم تولّى ، الأدبار ، ومن ورائها قمقمة العصى وقذف الأحجار .

فأين الحقيقة في الحظوظ ، دلوني . . دلوني !

\*\*\*

والخير والشر ، أي الحقيقة فيهما ؟ وأي المعاجم أفتح لتفسيرهما ،

معاجم الدنيا أم معاجم الدين . . معاجم ما كان ويكون ، أم معاجم ما يرجى أن يكون . معاجم الوقائع الحاضرة القريبة ، أم معاجم الوعود الغائبة البعيدة ؟ قالوا : « الشر ضلالة وخسران ، والخير كسب ورجحان » . وقد يكون هذا في السماء ، أما في الأرض فالاستقامة كما عرفناها اعوجاج وشدوذ ، والقناعة في الزحام تزحّم صاحبها إلى الموقف الأخير ، والأمانة ميراثها الفقر ، والصدق جزاؤه التأفف فالكراهة .

ومظاهر الشر السافرة تؤذى حقاً ، ولكنها تحت النقاب الجميل تسبق في الميدان ، وتكسب الرّهان . وأنت إذا أردت أن تربح طلبت من الشر جليلاً ، وعِفت حقيقه . فالشر الضخم مهيب ، والشر الضئيل الحقير صاحبه مكشوف مغلوب . إن السرقة مفضوحة معيبة ، إن اتصلت برغيف ، ولكنها غير ذلك إذا هي اتصلت ، أسهمًا ، في سوق الغلال بألف ألف رغيف ؛ والكذبة يفتضح صاحبها إذا قيلت في حارة بين اثنين ، والكذبة يهتف لها الناس إذا قيلت في زحام من فوق منبر تحمله أعواد من ذهب . والبنت تقتل إذا بذلت عفتها في كوخ على حصير ، والبنت لا تحسّ نقصاً في تكريم إذا هي بذلت عفتها على السرير الفضّي من وراء أسجاف الحرير .

وَإِخْدَاعِ النَّاسِ عَنْ أَنْصِبَتِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ، ابْتَدَعُوا طَيْبَ  
 الذِّكْرِ وَحُسْنَ الْأُحْدُوثةِ مِنْ بَعْدِ خُرُوجِ مِنْ دُنْيَا :  
 وَلَا يَبَالِي الْمَيِّتَ فِي قَبْرِهِ      بِذِمِّهِ شَيْعَ أُمِّ حَمْدِهِ  
 فَأَيْنَ الْحَقِيقَةُ فِي هَذَا ، وَفِي كَثِيرٍ غَيْرِ هَذَا ؟  
 دَلُونِي أَبِهَا الصَّبِيَّةِ : . وَأَنْتِ أَيْتِهَا الصَّبَايَا !

\*\*\*

وَكَانَتْ سَاعَةٌ ، انْحَسَرَ مِنْ بَعْدِهَا الضُّبَابُ عَنْ شَمْسٍ قَوِيَّةٍ  
 بَاهِرَةٍ ، فَاِذَا بِهِ الضُّجَى . وَانْكَشَفَتْ الطَّرِيقُ وَاتَّضَعَتْ السَّبِيلُ .  
 وَبَاتَتْ حُدُودَ الصَّحَرَاءِ الصَّفْرَاءِ ، وَحُدُودَ الْحُقُولِ الْخَضْرَاءِ ،  
 وَتَدَفَّقَ فِي قَنَاتِهِ وَآمَعَ فِي ضِيَاءِ الشَّمْسِ الْمَاءُ . وَمَعَ هَذَا ظَلَّ أَبْدَاءُ  
 الصَّعِيدِ يَنْشُدُونَ أَغْنِيَتَهُمُ الْخَالِدَةَ : « عطشان يا صبايا ، دِلُونِي  
 عَلَى السَّبِيلِ » .

ظَلُّوا عَلَى الْمَاءِ يَشْكُونَ الظَّمَأَ ، وَظَلَّتْ . وَعَكَفُوا عَلَى  
 الضِّيَاءِ يَطْلُبُونَ السَّبِيلَ ، وَعَكَفَتْ . وَمَضَيْتْ أَنْشُدَ مَعَ عَمْرِاءِ الْخِيَامِ :  
 أَنْشُدُودَتَهُ الْخَالِدَةَ :

وَلَفْهَمِ الْأَسْرَارَ وَالْأَلْفَازَ      ذَاتَ يَوْمٍ حَلَقْتُ تَحَايِقَ بَازِي .  
 فِي سَمَاءِ الْمَعْنَى الْخَفِيِّ الْجَازِي  
 وَلَقَدْ عَدْتُ بَعْدَمَا اجْتَرَزْتُ ذَاكَ الْبَابَ      مِثْلِي لَمَّا طَرَقَتِ الْبَابُ .



## حدثني الجمال قال :

أنا الجمال ، يعرفني الناس  
رسماً واسماً ، ولا يعرفونني  
وصفاً ، كالمعنى الذي يَحُسُّه  
القلب ، ويعجز فلا يُفصح  
عنه اللسان .

على عدة من أشياء مُشكِلة ،  
لم تَزِدْهم فِطنة ، ولم تُكسبهم  
في اجتلائي هُدًى ، بل  
زادتهم ضلالة ، كمن حلَّ  
الماء فخرج على غازين لا يشبهان

الماء في شيء ، فهما  
لا يَرَوِيان من  
ظماً ، ولا يُبَلِّلان  
من جفاف ،  
ولا يُلطِّفان

إن المرأة جميلة في  
سكونها ، ولكنها أجهل  
في حركتها . وهي  
جميلة في قعودها ،  
ولكنها أجهل في قيامها  
ومشيها .

أو أنا  
كالكهرباء ،  
يمسني الرجل منكم  
فتأخذه هِزَّةٌ مني  
تُعجزه عن التفكير

من حرٍّ كما يُلطِّف الماء .  
والناس في استكفاهي بالتحليل  
كمن يستكنُّه الوردة بالتمزيق ،  
لا يخرج منها إلا على عدد من  
الوريقات الذابلة .

في كُنْهِى . ومنكم فلاسفة  
ذوو قلوب باردة ، حلَّلوني كما  
حلَّلوا الكهرباء ، وحلَّلوني  
كما تُحلَّل الكيمياء ، فخرجوا  
من الشيء المُشْكل الواحد

وأنا الجمال ، أعيش على الجيم والميم واللام ، أعيش على  
الجملة لا على التفصيل ، وتُدركني العين في لحظة لا تجمل للعقل  
مجالاً ليعقل ، ولا تترك المنطق فسحةً ليتمنطق ، فأنا إما هنا  
أو لستُ هنا . أنا إما حاضرٌ أو غائب . وليس لي لقب أدعى به  
فأُلَبِّي ، وليس لي بطاقة أكتشف بها عن نفسي كما يكتشف  
المجهولون المغمورون :

وجعلوا بيني وبين الحساب نسبا ، وقاسوا منازلَ نزلتها من  
الناس والأشياء طولا وعرضا ، ورقموها وخططوها على  
الأوراق ، ثم قالوا بهذه الأرقام ، وعلى هذه النسب ، وفي مثل  
هذه الأشكال ينزل الجمال . ونظرتها فوجدت أنها مما أنزل  
فيه أو لا أنزل ، ووجدتني أنزل في غيرها أكثر مما أنزل فيها ،  
وعجبتُ لهؤلاء الحاسبين ، وقد بلغ منهم حبُّ القيد والتقييد  
أنهم يريدون أن يقيّدوا الجمال بمنازلَ ينزل فيها . وإن يكن في  
الدنيا شيءٌ يكره القيدَ والتقييدَ ، ويحبُّ الحرية والتحررَ ،  
فذلك أنا ، أنا الجمال ، كثيرُ المساكن ، واسعُ الساحات ، لي  
بكل أرضٍ مهبطٌ ومهابطٌ وبكل جنسٍ من أجناس البشر منزلٌ  
ومنازل .

وأنا أنزل في الشجر ، وأنزل في الطير ، وأنزل في ما مشى  
على الأرض أودبٌ ، ولكني أبهج ما أكون ، وأمتع ما أكون

فِي الْإِنْسَانِ : أَسِيرٌ فِي رِكَابِ الرَّجُلِ ، أَوْ رِكَابِ الْمَرْأَةِ ، فَيَتَّبِعُ  
النَّاسَ حَيْثُمَا سَارَ وَسَارَتْ . وَحَيْثُمَا حَلَّتْ وَإِيَّاهَا ، تَكُونُ الْغَبِطَةُ  
وَيَكُونُ السَّرُورُ .

وَلَسْتُ أَنْسَى ، أَنَا الْجَمَالَ ، بُولَيْنَةَ الْجَمِيلَةَ ، تِلْكَ الَّتِي  
سَوَّيْتُ قَدَّهَا ، وَوَزَعْتُ قَسَمَاتِ الْحَسَنِ عَلَى رُجُلَيْهَا ، بِمَا خَبَلَ  
النَّاسَ ، فَثَارُوا بِطَالِبُونَ أُولَى الْأَمْرِ بِالْمَدِينَةِ ، مَدِينَةَ طُولُوزَ ،  
بَأَن يَكُونُ لَهُمُ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الْمَتْعَةِ ، وَنَصِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْفَتْنَةِ ،  
فَقَضَتْ السُّلْطَانَةُ عَلَيْهَا بِالظُّهْرِ مَرَّتَيْنِ كُلَّ أُسْبُوعٍ فِي شُرْفَةِ  
دَارِهَا : وَكَانَتْ كَمَا ظَهَرَتْ ، هَاجَ الْقَوْمُ وَمَاجَوْا ، وَثَارُوا  
فَكَادُوا أَنْ يَكُونُوا عَلَى الْأَمْنِ خَطَرًا .

كَانَ هَذَا فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ .

وَأُخْرَى فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ ، أَلَيْزَةُ دُوقَةُ هَامْبُلْتُونِ ،  
سَوَّيْتُ مِنْهَا مَا سَوَّيْتُ ، وَزَيَّنْتُ مِنْهَا مَا زَيَّنْتُ . وَتَلَقَّاهَا الْمَلِكُ  
فِي قَصْرِهِ فِي حَفْلٍ ثَقِيلٍ بِوَقَارِهِ . نَحَفَتْ بِالْقَوْمِ جَمَالُهَا ، فَتَكَوَّكَبُوا  
عَلَيْهَا ، وَرَكَبُوا الْمَقَاعِدَ وَالْمَنَاضِدَ لِاجْتِلَاءِ نَظَرَةِ مِنْهَا . وَالْمَلِكُ  
نَسُوهُ ، وَحَكَمَ الْقَصْرَ طَوْرَهُ . وَكَانَتْ حَيْثُمَا حَلَّتْ نَبَتْ الزَّحَامُ .  
وَالْمَسَارِحُ امْتَلَأَتْ وَفَاضَتْ كُلَّمَا زَارَتْ . وَتَنَزَّلُ فِي الرِّيفِ  
فَيَقْبَعُ حَوْلَ دَارِهَا الْمَنَاتُ مِنَ الْخَلْقِ لِيَرَوْهَا وَهِيَ تَخْرُجُ فِي  
بُكُورِ الصَّبَاحِ ؟

والكل قرنٍ نساؤه ، والكل جيل بهاؤه .  
وكوبيد رسول الحب ، جعلوه طفلاً ذا جناحين ، ووضعوا  
على عينيه عصابة ، فهو أعمى . وأنا قائده . أفتاده فيطيع ،  
فلا حجة المحتجّ تفيد ، ولا عزل العازل ينفع .  
وأنا الجمال أحلّ في الصغير وأحلّ في الكبير ، ولكني  
في الصغير أحب ، لأن الصنعة فيه أدق ، والفنّ أرق ، والفنان  
فيه أحذق . والكبير يثير الروعة والصغير يثير العطف ،  
والروعة ارتياح ، وهو يدعو إلى البعد ، والعطف ميل ، وهو  
يدعو إلى القرب . وزهرة الياسمين البيضاء تُلَقَط بين السبابة  
والإبهام في حنانٍ وريبة ، والوردة الحمراء تؤخذ أخذاً بالأصابع  
كافةً على اطمئنان وثقة . والريبة تُحبي الحب ، والثقة تقتله .  
والمرأة يدعوها صاحبها بعزيتي الصغيرة ، ولا نسمع أحداً  
دعاها عزيتي الكبيرة .

ومثل الصغر الضعف ، ومثل الضعف المرض . فأنا أسكن  
إلى الضعف أكثر من سكني إلى القوة . وأنا في مظاهر المرض  
أفعلُ مني في مظاهر الصحة . إن الغزالة على دقة ساقها ودقة  
قرنها أجمل من الوعل . وجواد السباق أجمل من حصان الجرب  
والقطعة في إقامتها أجمل من الأسد في إقامته ، في تلك الوداعة ،

وفي هذا الفخامة . والمرأة جمالها في ضعفها ، وهي أفعل في الرقة  
منها في الغلظ : وهي في الغلائل خير منها في الثوب الصفيق ،  
كالبدري يزيد السحاب الرقيق فتنة . والخفر صِنُو الضعف ،  
وفي الخفر التراجع ، وما أحبَّ إلى الرجل من جمالٍ متراجع .  
وكذلك الجمال المتمارض وليس به مرض .

\*\*\*

وأنا الجمال أحلّ بالوجه الضاحك كما أنزل بالوجه الحزين :  
وكم وجه أظلم على الجِدَّة ، فلما ابتسم أشرق وأضاء كأحسن  
ما تشرق الأتقار . وكم وجه ضحك فكان كسائر الوجوه إذ  
تضحك ، ثم وَجَمَ وَعَلَتْهُ مَسَّةٌ من حزن فشاق وقتن : إنه جمالٌ  
بالك لا يسطع إلا في الثياب السود .

وأنا الجمال أعيش في الملاسة وعلى التطرية ، وحدودي في  
المرأة جلدٌ أملس : وحدودها خط لا يعرف الزوايا ، وهو إذا دار  
انحنى ، تصوَّبَ أو تصَعَّد . ولو درت معه بأصبعك وهو يثني  
ويتعنى ، لتغير اتجاهك وما أحسست لفرط اللين والتدرج  
بانعكاس وجهتك .

وأنا الجمال تلقاني عند شفة كالعناب ، وفي وجبة كالورد ،  
وعلى جبين كإشراق الصباح ، ولكنك لا تجدني في كل هذا

مثل ما تجد إذ تَلْقَانِي فِي الْعَيْنِ الْجَمِيلَةِ ، تُحَدِّقُ فِيهَا وَهِيَ صَافِيَةٌ ،  
 فَتَهْبِطُ فِي صَفَائِهَا مِنْ عُمُقٍ إِلَى عُمُقٍ ، لَا يَنْتَهِي بِكَ إِلَى قَاعٍ .  
 وَهِيَ كَالْغَدِيرِ الرَّائِقِ بِعَكْسِ صُورِ الدُّنْيَا . وَقَدْ تَطَرَّفَ الْعَيْنُ ،  
 فَكَأَنَّمَا لَعِبَ النَّسِيمُ عَلَى سَطْحِ الْغَدِيرِ فَاضْطَرَبَ مَآؤُهُ ، وَلَمْ يَذْهَبِ  
 الرِّيحُ بِصَفَائِهِ . وَالْعَيْنُ ، مِنْ دُونِ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ ، تَنْطِقُ عَلَى  
 الصَّمْتِ ، وَهِيَ أَنْطَقَ مَا تَكُونُ إِذَا صَمَتَ اللِّسَانُ ، وَهِيَ بِوَّاحَةٍ  
 فَضَّاحَةٍ ، لَا تَقُولُ إِلَّا الصَّدْقَ إِذَا أَعْوَزَ الصَّدْقَ قَائِلُوهُ . وَقَدْ  
 أَرَادَتِ النَّفْسُ ، وَهِيَ أَسِيرَةُ الْجِسْمِ حَبِيسَتُهُ ؛ أَنْ تَخْرُجَ عَنْ  
 إِسَارِهَا ، وَتَتَرَوَّحَ مِنْ حَبْسَتِهَا ، فَلَمْ تَجِدْ كَالْعَيْنِ شُرْفَةً تُطِلُّ مِنْهَا  
 عَلَى الْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ . وَفِي هَذِهِ الشَّرَفَاتِ تَلْتَقِي الْأَحْبَابُ أَوَّلَ  
 التَّمَاءِ ، فَإِنَّمَا رِضًا فَاشْتِفَاءً ، وَإِنَّمَا تَجَافٍ يَكُونُ مِنْهُ الدَّاءُ .

\* \*

وَأَنَا الْجَمَالَ أَعِيشُ فِي الْكَوْنِ كَمَا أَعِيشُ فِي الْحَرَكَةِ ، فَأَنَا  
 أَعِيشُ فِي الْحَجَرِ فِي الْأَصْنَامِ ، وَفِي الزَّيْتِ عَلَى الْخَيْشِ ، وَلَكِنْ  
 كَمَا يَعِيشُ الصَّوْتُ الْجَمِيلُ فِي أَقْرَاصِ الشَّمْعِ السَّوْدَاءِ ، تُعَوِّزُهُ الْيَدُ  
 الَّتِي تَضَعُهَا عَلَى آلَةِ الدَّوَّارَةِ وَتَحْرُكُهَا ، وَكَمَا يَعِيشُ الْفِكْرَةُ  
 الرَّائِعَةُ فِي كِتَابٍ ، يُعَوِّزُهَا اللِّسَانُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهَا . وَأَنَا ، فِي  
 حَجَرٍ أَوْ خَيْشٍ ، نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ لَحْنٍ طَوِيلٍ بَدِيعٍ ، لَا تَبِينُ  
 مُوسِيقَاهُ إِلَّا إِذَا تَحَرَّكَ النِّغَمُ وَتَدَفَّقَ .

إن المرأة الجميلة . جميلة في سكونها ، ولكنها أجمل في حركتها . وهي جميلة في قعودها ، ولكنها أجمل في قيامها ومشيئها ، ففي القيام يستقيم العود وتتصدر النهود ، وتتحرك الأعضاء ، التي صاغها الله فأحسن صياغتها ، على اتفاق واتساق في تتابع يعطيك لا صورة واحدة من الجمال ، ولكن صوراً شتى . وهي صور حية دافئة بالذي يجري فيها من دم حار ، وذا ناظره لو يكون شراباً .

\*\*

وأنا الجمال ، أنزل حيث أنزل فلا أقيم طويلاً . في طبعي القلق ، وفيه الملل ، وفيه التحول . وأنا أحمد الجدة في الأوعية ، والحرارة في الدماء ، فإذا أخذت تبرد اعترتني قسيرة ، فتحولت إلى حيث الحياة أزخر ، ومنابعها أوفر : قال شاعرهم :  
 زودينا من حسن وجهك ماداً مـ فحسنُ الوجوه حالٌ تحوّلُ  
 وصلينا نصلك في هذه الدنيا يا فإن المقام فيها قليلُ  
 ولقد صدق . غير أن الحسن لا يحول فيفنى وإن فنيت صاحبه . إن الناس تذهب وأنا غير ذاهب ، والناس تموت وأنا الحى الباقي . أنا الخالد أنتقل مع الحيات في الأرحام ، وأركب بها أشاء من الصُور في مدارج القرون :

## اللهم نسالك السر

لست أدري لماذا      والطارقات : قال أحدم إنه  
نستملح الفسقة على الرغم مما      يحب دائماً أن يغشى المنوع  
بها من خُبث : بل لعلنا      في حياته مرة ، فيراه من بعيد  
نستملحها للذي بها من خُبث      أو قريب ، وأنه لذهابٌ إلى  
حكى خبيثٌ قال :      إحدى هذه المستعمرات فناظره

تحدث فتيةٌ      ما أمرها. وتحذاه  
في المبدأ القائل      إخوانه فضرب  
بأن الفاس خلقوا      لهم موعداً . فلما  
ليكونوا كالبهايم      بلغوا المستعمرة  
عرايا ، وأن      وجدوا حديقة

وتساوى الناس هل  
العري ، فكانوا كحفنة  
رمل أحفنها عند ساحل  
البحر ، لا أفرق فيها بين  
حصاة وحصاة .

الملابس إفسادٌ للطبيعة ،      واسعة ذات جدار ، وفي  
وذكروا بذلك العارين      داخلها بيتٌ عظيم . فوقف  
والعاريات ، وما يُقيمون      أصحابه عند باب الحديقة ،  
لأنفسهم من مستعمرات ،      ودخل . فلما لم يجد فيها أحداً  
ممنوعةً على الطارقين      طلب الدار : ودق ، ففتح



الباب قاتح . فتحدث إليه : ثم عاد إلى إخوانه يخبرهم بأن الخادم يقول إن الزيارة لا تكون إلا بموعد . قالوا : وما أدراك أنه الخادم ، فلعله سيدُ المستعمرة أو حاسبها ، أو خابزها أو طابخها ، أو لعله أحد النزلاء . فحكّ الفتى رأسه بأظافره حيرةً وعجزاً . ثم قال : على كل حال أنا متأكد من شيء واحد ، أن مَنْ رأيتُ ، إن لم يكن الخادم ، فهو يقيناً وليس الخادمة .

ولست أظن أن أحداً من أصحابه ، ولا منّا ، مال أو يميل ، إلى التشكك فيما أكد صاحبنا من يقينه : ذلك أنه يحكى عما رأت عيناه . ولكن عيناها لم تستطعا ، على العرى ، أن تعرفا : أهذا الذى رآته سيدٌ أم مسود ، ولا أية منزلة أو وظيفة يحتمل في الدار .

\*\*\*

وعَلِقَ فكرى بعضَ حين بهذا المعنى : علق ذهني ، لا بالذى قَطِنَ إليه صاحبنا من الأمر ، ولكن بالذى لم يَفْطِنَ إليه من ذلك : وانطوى النهار وانطوت الحادثة .

ثم جاء الليل والنوم . ومع النوم الأحلام . فرأيتني أسير في مدينة ، والمدينة مزدحمة ، وهى في هرج ومرج ، كأن شيئاً جَدَّلاً قد وقع فيها . ونظرتُ إلى الناس فوجدتهم

على غير عهدى بهم : كانوا كلهم عُرَاةً : ودُرْتُ أجوس  
 خلالهم عسى أن أتعرف منهم أحداً ، فعزّت على المعرفة :  
 عندئذ أدركت أنى إنما كنت على الحال الأخرى أتعرف الناس  
 أجساماً مَكْسُوءَةً : كنت أراهم أنواباً تروح وتجيء ، وتقوم  
 وتقعّد ، وتُبْطِئُ وتهزول : أما وقد صاروا الآن أجساماً ،  
 ولا شىء غير أجسام ، فقد انبهمت المعالم ، فما عرّفتُ الرجلَ  
 منهم ، حتى على القرب ، ومن أمام ، إلا إذا تصدّد بصرى إلى  
 تلك الرقعة القليلة في الدور الأعلى من بنائه ، تلك التى نسميها  
 وجهاً . لقد أصبح الوجه البقية الباقية لهؤلاء العُرَاة من ماضيهم  
 لإثبات ماهية ، أو تحقيق شخصية ، كما يُثبتها ويحقّقها السواد  
 من الناس .

وتساوى الناس على العُرَى فكانوا كالأغنام ، وقد ازدحم  
 بهم الحقل ، فلم أستطع أن أفرق بين شاة وشاة . أو كانوا  
 كحُفْنَةٍ من رمل أحفنها عند ساحل البحر ، لا أفرق فيها بين  
 حصاة وحصاة .

ودخلتُ الأسواق ، ومشيت في الطرقات ، وطرقتُ المصالح  
 والبنوك والشركات ، فما وجدت إلا أبداناً متشابهة ، فلم أدر أيتها  
 العالى وأيتها السافل ، وأيتها الرفيع وأيتها الوضيع ، وأيتها صاحب  
 الأمر وأيتها الذى ينتظر الأمر ليطيع .

وطلبت فيهم الفقير ، وطلبت الثرى ، فلم أدرك أيهم ذو فقر  
وأيهم ذو ثراء ، لأن مظاهر الغنى أكثر ما تكون في الثياب ،  
وهي ليست هنالك . وقد تقول إن في الشحم لدليلا ، ولكن من  
الأغنياء قوم لا تُثمر فيهم النعمة ، حتى الكثيرة . ومن الفقراء  
من تُثمر فيهم النعمة ، حتى القليلة . وغير هذا ، فللثراء درجات  
تتجاوز حدودها ما على الأجسام من شحوم .

وطلبت فيهم ذا الأناقة وذا الإهمال ، فلم أدرك أيهم ذو أناقة  
وأيهم ذو إهمال . لأن مظاهر الأناقة والإهمال تتراءى على الثياب ،  
وهي ليست هناك .

ونظرت فيهم فلم أدرك أيهم ذو جهل ، وأيهم ذو علم ، وأيهم  
ذو دنيا وأيهم ذو دين ، فلم أر العائم البيضاء ، ولم أر المسحوح  
السوداء ، ولم أدرك من فيهم ذو زراعة ، ومن فيهم ذو صناعة ،  
فالجلباب الأزرق اختفى ، واختفت السراويل الزرقاء .

ووقف في مفرق الطرق رجل ، يُشح آنا يمينه ، وآنا  
بشماله ، ولولا ذلك ما أدركت أنه البوليس أو أنه بعض رجاله .  
وظللت أقلب عيني في هؤلاء الخلق ، أتعرف مهتهم ،  
وأبين هويتهم ، فارتدت عيني عنهم ، آخر الأمر ، بغير فهم  
كثير . لم يُفدني النظر إلى هؤلاء العراة شيئا إلا القدر الذي

أفاده صاحبنا زائر المستعمرة العارية ، ذاتِ الدارِ العظيمة  
والحديقة الواسعة ذاتِ الجدار .

والنساء وجدتهن أكثرَ هذه الجموع ضيقاً ، وأكثرَهن  
تسخطاً . قلت لمن : أفما كانت هذه الغاية التي رمت إليها  
أكثرَهن . قلن : قُبِّحتُ من غاية . لقد كدنا نتخذ من الثياب  
ستاراً للمعائب نخفيها ، وإطاراً للمفاتيح نُبديها ، وكدنا نملأ بها  
الفارغ ، ونخفف عن المألآن . والزوايا نحشوها فنصطع منها الدوائر .  
والذيل نجمرّه أحياناً ، والمعطف نمطفه فتنة ودلالا . قلت :  
والرجال ؟ قلن : قُبِّحهمُ الله ، لقد كان الرجل منهم يدخل بيوتنا  
فأول ما ينادى : « يا ستار » ! فما أولاهم اليوم بهذا النداء .  
وما أولى بهذه الكروش الورمة والصدور المعشبة ، وتلك  
السيقان الدحيلة العوجاء التي كأنها تمشي القرُفصاء ، ما أولاهما  
الآن أن تصرخ تطلب السَّترَ من الله .

ومرّ رجل فاستمع . قلت : ما ترى في النساء ؟ فامتقع لونه  
وماعت نفسه . وأشار كأنما يطلب ليمونة . وقبل أن يقول ،  
استيقظت من نومي ، وأنا أحد الله أن الرواية تتم فصولا .

## سلاسل وأغلال

يا عزيزى ولا تثريب . لا لومَ عليك اليوم  
ضيقه ليحسن به جذّة الإهاب ،  
وانفراجُ ساقيه بالخطو ، مع

إن الكتاب الذى زعمت أنك أرسلته إلى لم يكن  
الذقر القوى على الأرض ،  
ليحسن به قراة الصّبا .  
ولكن كان رسالة واستُ ، على سنك الحاضرة ،

من تلك الرسائل الطويلة التى يجرى  
بشباب ، ولو أنى  
فعلت لقام ببرئك  
منه فودان منك  
اشتمل فيهما  
إن الرجل منا يولد  
حرّاً . فإذا مسى فى  
الأرض ، أثقله  
الأغلال .  
روسو

لا يغميه من حركته ، أن  
الشب فما أبقى منهما إلا  
شرق أم غرب ، وشمال أم  
رماًداً . ولكنك يا سيدى  
أجنب ، ولكن يغميه منه  
شيخُ الجسمِ فى العقل ، لك  
احترازُ دمه ليحسن به دفء  
من دفء المنخ ما أغنى عن  
الشباب ، واتساعُ جلده ثم  
دفء المضل ، ولك من

صهوة الفكر وصبره واحتماله ما أغنى عن احتمال الساعد والقدم ،  
ولك في متابعة الحجّة استرسالٌ يُغيي الحجّة ولا يُغييك .  
ولكن فتوّهُ عقلك من فتوة جيلٍ مضى . وهو في رياضته ،  
إذا ركب « المتوازيين » أو تعلّق « بالعقلة » ، يحىء بتمرينات ،  
غاية في الدقة ، غاية في الروعة ، لا يعيبها إلا أنها أطرزة من  
زمان تقضى . فهي جميلةٌ جمال صورة الزيت على الخيش ،  
تسجلُ الدهرَ ، وتزيّن جدران المتاحف ، ولكنها في حاضر  
الزمان غير ذات موضوع .



إنك تعيب علىّ ، ومن درج مَذرجي ، ونحما منجاي ، أننا  
نُعن في ذكر الفقر ونُثير حفيظة الفقراء ، فنُثير حفيظة قومٍ  
راضين . وليتنا فعلنا . وليتنا إلى هذا قصدنا . إن من يبلغ بهم  
الفقرُ هذا المبلغ ، قد أُمِنَتْ وأُمِنّا شرّهم يا سيدي ، بما بلغ منهم  
الجهل فنزل بهم إلى دَرَكَ لا يفهمون عنده ما يكتب الكاتبون .  
لأنهم أميون فلا يقرأون . إن الجهل صديقُ الفقر وحبيبه ، وهو  
لا يفارقه أبداً . والجهل يحجب النور ، فالفقر دائماً في ظلام .  
وأنت يا صديقي في مأمن ما دام الفقر في ظلام . ولقد فُطِن كثيرٌ  
من لم عقلك ، ولم بصيرتك ، إلى فوائد الظلام فرفضوا أن  
يُدخلوا النور إلى قراهم ، ولو مضباح زيتٍ نصفُ شعلته دخان .

لأنهم عملوا على تأخير المدارس أن تدخل قراهم لأنها تهوّش من سلام قومهم في الجاهالة ، على الرضا ، ناعمون .

نعم على الرضا . . . لقد قال كبيرهم كما قلت أنت تماما :

« فتُشير حَفِيْظَة قوم راضين » . وأهل القرى حقاً كما تذكر راضون ، فالريف لا شك ساكن هادئ . ونحن لا نطلب للريف غير الهدوء والسكون . إن الريف جماله في هدوئه وسكونه . نَبْتُهُ يَنْبِت في سكون . وزهره يُزهَر في سكون .

وثمره يُثمر في سكون . ويتغير وجه الأرض في الريف ، على البطء ، فلا يكاد يُحسُّ بالذي يجري فيه أحد ، من شدة السكون . وكذلك ناسه ؛ أعداهم سكون الأرض فسكنوا ، وخيم عليهم هدوء البيئة فهدأوا . فالريف ، بتربته ونبته وناسه وحيوانه ، موضعٌ من الأرض باركه الله فجعله سلاما . ووجب أن يبقى له سلامه ما بقي لى ولك ، يا عالي الفهم ! حاجةٌ إلى الخروج عن حَلْبَة المدن إلى سكون الريف . يجب أن يظل للريف سكونه ، لينعم فيه أهله ، على الفقر والجهل ، ولأنعم أنا وأنت ، على الثروة والعلم . والنعم ، كما تقول ، صورةٌ عقليةٌ لا حقيقة لها إلا في العقل ، فهي قد تكون على الجهل والفقر ، وعلى صنوف من أحوالٍ آخر .

ولكن يتخيل إلى — ومعدرة إن كنت لا أجيد من

صَمَمَةُ الكلام واستنباط الأحكام ما تُجيد — يَخِيلُ إِلَى أَنْ  
 الْمَسْأَلَةُ أَيْسَرُ رَضَى الْفَقِيرَ بِمَا هُوَ فِيهِ ، وَلَكِنْ رَضَانَا نَحْنُ ، أَنَا ،  
 وَأَنْتَ ، بِالَّذِي هُوَ فِيهِ . أَنَا لَا أَكَلِّفُ الْفَقْرَ شَطَطًا ، فَأَطْلُبُ  
 إِلَيْهِ أَنْ يُدْرِكَ . وَلَا أَكَلِّفُ الْجَهْلَ شَطَطًا ، فَأَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ  
 يَنْهَمَ . وَلَا أَكَلِّفُهُ حَتَّى أَنْ يَرْضَى أَوْ لَا يَرْضَى . ذَلِكَ أَنِّي إِذَا  
 كَلَّفْتُهُ أَنْ يَرْضَى قَامَ عَلَيَّ بِكَذِبِي ، وَضَمِيرِي يُوْنَبِنِي . وَأَنَا إِذَا  
 كَلَّفْتُهُ أَنْ لَا يَرْضَى ، وَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ ، فَإِنَّمَا أَزِيدُ  
 طِينَتَهُ بِلَّةً . أَزِيدُ حَسَّهُ بِالسُّوءِ لِيَزِيدَ حَسَّهُ سُوءًا ، أَوْ قِظُهُ لِمَا هُوَ  
 فِيهِ لِيَتَأَلَّمَ عَلَى اللَّيْقَظَةِ ، وَأَنْتَ تُرِيدُهُ أَنْ يَهْدَأَ نَعْسَانَا . وَهَذَا نَوْعٌ  
 مِنْ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي لَا يُدْرِكُ كُنْهَهُ إِلَّا الْفَطْنَاءُ !

أَقُولُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ ، أَيْسَرُ أَنْ الْفَلَاحَ ، وَأَشْبَاهَ الْفَلَاحِ ، يَرْضَوْنَ  
 عَنْ حَالِهِمْ أَوْ لَا يَرْضَوْنَ ، وَلَكِنْ الْمَسْأَلَةُ أَنْ نَرْضَى نَحْنُ ، أَنَا ،  
 وَأَنْتَ ، عَنْ حَالِهِمْ أَوْ لَا نَرْضَى . نَحْنُ إِنَّمَا الْقُدْرَةُ عَلَى الرِّضَى ،  
 أَوْ غَيْرِ الرِّضَى ، وَإِنَّمَا الْحَقُّ فِي الرِّضَى وَغَيْرِ الرِّضَى ، وَعِنْدَنَا الْأَدَاةُ  
 الَّتِي تَوْهَانَا لِنَرْضَى أَوْ لَا نَرْضَى . وَلَا أَحْسِبُنِي وَلَا أَحْسِبُكَ تَرْضَى  
 أَنْ هَذَا الرَّجُلُ الْجَاهِلُ الْفَقِيرُ — وَاسْمُخْ لِي أَنْ أَقُولَ التَّعَسُّ وَلَوْ مَرَّةً  
 فِي غَيْرِ مَنَاقِضَةٍ لِفِكْرَتِكَ — هَذَا الرَّجُلُ يَنْعَتُونَهُ بِأَنَّهُ ابْنُ جِلْدَتِكَ .  
 وَهُوَ كَأَنَّكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعُ . إِذَنْ فَأَنْتَ لَا تَرْضَى عَنْ



انجداع أنفك . وإذن فانت والله لا ترضى عن فقر رجلك  
وتعاسته . هذا حسن جميل . وإذن لا بد من تغيير . والتغيير  
يجب أن يبدأ من علي ، حيث أنت قاعدة يا عزيزي . إن الماء  
الذي يسيل من المكان العالي يهبط في سهولة ويسر فيكون فيه  
السقي والرعى . وغير ذلك الماء الذي يتفجر من المكان الخفيض .

\*\*\*

واقعد أعجبتني مقالتك عن الحقيقة ، ما يؤخذ منها ببرهان ،  
وما لا بد من أخذه بغير برهان . إن من الحقائق ما لا بد من  
مضغه قبل ابتلاعه وهضمه ، ومنها ما يقبله الإنسان بالطبع قبول  
الماء ، إذ يمر بموضع الطحن من الأسنان ، ويمر بموضع الهضم  
من المعدة ، فيؤذن له في المرور بغير استئذان . وأنا أوافقك  
على تلك الحقائق التي أتى بها إقليدس فأسمها بدائية لئلا أعوزه  
البرهان . أوافقك وأوافق إقليدس على أن الشئين إذا تساويا ،  
تساوت أنصافهما . وأوافقك على بدائية أخرى لا أطلب منك  
الدليل عليها ، لأنني أعرف أنه يعوزك ، ويعوزني ، كما أعوز  
إقليدس عليها الدليل .

ولكن هل في الحرية وكيئوتها ، شيء يدخل في بديها .

الأمور ؟

ثم فلأنتقل بك إلى الحرية وتعريفك إياها .  
 تقول إن الناس يولدون أحرارا ، وأن الشقيَّ يَجْنِي على  
 نفسه الشقاء حراً طليقا ، وأن السعيد يكسب لنفسه السعادة  
 حراً طليقا .

وقد تأملتُ في مقالك طويلا ، فاتضح لي أن الحرية شائعةٌ  
 لا شك في الناس ، فالرجل يستطيع أن يجرى وأن يكفّ عن  
 جرى . وهو يستطيع أن يقوم أو أن يقعد ، وهو يستطيع أن  
 يتشاءب أو أن يضحك : وهو يستطيع أن يضحك بسبب أو بلا  
 سبب ، ولا يُسأل في ذلك . وهو يستطيع أن يبكي ملء كفيه  
 ولا يقول له أحد لم تبكى . وهو يستطيع أن يأكل ، وأن  
 يفرغ ، وهو يستطيع أن يشرب ، ولا يمنعه أحد أن يبول .  
 مجالٌ للحرية لا شك عظيم !

ولكن أساء إلى معنى الحرية الذي تزعمه يا صديقي ، وأفسد  
 ما تعتقد من شيوعها واكتماله ، وما كدتُ أعتقد من شيوعها  
 واكتمالها ، تذكرى قَوْلُهُ قَالِهَارُوسُو ، فيلسوف فرنسا الشهير ، أن  
 الرجل يُؤَلَد حراً فإذا مشى في الأرض أثقلته الأغلال . ودُرّت  
 أمشى في الأرض أبحث عن أغلالها ، فوجدت في كل طريق  
 قيّداً . إن الرجل متناحرٌ له أن يأكل أو لا يأكل ، ولكن هذا

لا يأتى إلّا أن يكون طعام . وهو حرّ له أن يشرب ، على أن يكون شراب . وهو حرّ أن يزرع ليأكل ، على أن تكون أرض . وهو حرّ أن يعمل ويكتسب قوت يومه ، على أن يكون عمل . وهو حرّ أن يتعلم ، على أن تكون في جيبه نفقة ذلك .

فقل لى كم من الناس تهياً لهم الحرية على هذا النحو ، كاملة ؟

إنى معك . فلست ممن ينفسون على أصحاب الأموال أموالهم ، وأنا أعجب بالمال لما له من خواصّ عجيبة . ولا أكره منه شيئاً ككراهتى لخاصة واحدة فيه ، أنه دائماً يحمل معه طابع السلطان ، ويحمل الغلبة ، ويحمل القوة ، وحيثما هبط تنفرج له الصفوف ، وتتخاذل دونه العزائم .

وليتك كنت معى فى حديقة منزلى ، حيث تجتمع القطط فى ضحى النهار ، إذن لرأيت منظراً عجيباً ، يؤكد لك معنى .

فى ركن من أركان الحديقة ، فى ساعة من ساعات النهار الأولى ، تتجمع هذه القطط ، لأنها اعتادت ، فى هذه البقعة من الأرض ، وفى هذه الفترة من الزمان ، أن ترى الطابخ يقذف لها من نفاية اللحم ما يعافه الأدميون المتأنقون . وتتساقط عليها تلك النفايا قطعاً . فهل تدرى من نصيب من تكون ؟ تكون من نصيب قطعة جار لنا ، لها جسم مليء ، ورأس ضخم ، وأكتاف

سِمان ، وسواعدُ شِدَاد ، ومخالب حِدَاد ، ونفثةٌ عند الشر  
مُخيفة . فهذه تدور تَلَمُّ من النفايا الساقطة في فمها هذه القطعة ثم  
هذه ثم هذه . وسائر القطط واقفة ، واسعة العين ، تنظر  
ولا تجرؤ ، لذى بها من ضعف وهزال ، كل أملها أن تضل  
هذه القطعة الأخرى عن قطعة لا تراها .

هذه القطعة فازت بالأنصبة جميعاً ، أو بأكثرها ، لأنها  
أشبع ، ومن الشبع قوة . وسائر القطط فازت بالنصيب القليل ،  
أو بلا نصيب لأنها أجوع ، ومن الجوع ضعف . في طبيعة  
الشَّبع سرٌّ زيادة الشبع . وفي طبيعة الجوع سرٌّ زيادة الجوع .  
أفلا ترى معى أن هذه الصورة ، التي تجدها في حديقتي ،  
هى صورة صادقة مما يجرى في حدائق العيش ، بين الناس .

\* \*

على أنى أعود فأقول لا بأس عليك يا صاحبي ولا تثريب ،  
وليس عليك مما أقول بأس . إنها أحاديث يملأ بها الرجل  
الوقت ، كما يملأ الفارغ زمانه بالنرد ، له منه مسلاته ، وليس  
له من وراء ذلك تَبِعْتُهُ . والأحاديث من ذلك أنفاس ،  
والأنفاس هواء ، والهواء أرخص الأشياء .

## الكرة التي تحمل فوق عنقك

جئتُ الذادى مساءً ، فاستوى استواء لم تعهد الأرض  
وهو ذو شجر وذو عُشب ، مثله . وقام في الرقعة جماعة  
والخضرة فيه أكثر ما يملأ من الرجال ، في ثياب بيض ،  
العين . إلا الماء في زرقته أكثرهم أشياخ ، يقذفون على  
أو بياضه ، والغلمان تنثره هذا البساط كرات سوداء

من خشب ، ملء  
اليدين ، يهذفون  
بها إلى غرض  
يُصِيبُونَهُ فِي أَقْصَى  
الرقعة . ويقذف

إن الزيف ، في عقول  
الناس ، وفي قلوبهم ،  
عدو المنطق ، وعدو  
الحياة ، وهو سبب  
لكثير مما ترى من  
شقاء وأرزاء .

وتنشره من  
خراطيمه على  
سُنْدُسِ الأرض  
نثرًا ، ليروى نبتها  
وبيل أنفاس  
الزائرين .

القاذف منهم ككرته على  
الأرض دحرجة في خط  
مستقيم ، فتبدأ طريقة مستقيمة  
— أو هكذا حَسِبْتُ — ثم  
لا تلبث أن تميل حتى تبلغ  
وغابت الشمس أو كادت .  
ونظرتُ فوجدت في جانب  
من جوانب المكان رُقعة  
قَصَّوْا حَشِيشَهَا قَصَّ الشَّعْرِ

المهدف فتصيبه ، أو هي تكاد ولا تفعل .

وعجب صاحبي من كرة ، هي في عيئه مكورة غاية التكور ، منتظمة الشكل غاية انتظام ، تنطلق على الأرض مستقيمة فلا تلبث أن تحيد ، فيصيدها زينغ .

وسأل عن السر . قلت ثقل من رصاص يضمونه في الكرة في جانب دون جانب عند طرف دون طرف ، أو هو نصف الكرة يخربطونه أقل تكوراً وتدوراً من أخيه . قال : واللعبة من أين جاءت . قلت إنها لعبة جاءتها من أكثر أم الغرب .

\*\*\*

ومضيت أقرن هذه الكرة التي لا تلبث أن تنطلق على الأرض حتى تزوغ ، بتلك الكرة الأخرى التي يحملها كل منا فوق عنقه ، ونسميها بالرأس . إنها الأخرى لا تكاد تنطلق بالفكر على استقامة حتى تزوغ . كرة الأرض يميل بها ما تضمنته من رصاص ، وكرة الرأس يميل بها ما تضمنته من هو .

وليس من أحد على ظهر هذه الأرض ليس برأسه ثقل ، بل أثقال تميل به . والثقل قد يكون في الرأس عن يمين ، فيميل بالفكر إلى يمين . والثقل قد يكون في الرأس إلى شمال ؛ فيميل بالفكر إلى شمال . وهو لا يكاد يجري في أحد على استقامة أبداً .

ومن عجب أن تزوغ العقول بالناس ولا يحشون لها زيفاً ،  
ذلك لأنها تجري في نعومة ، وعلى الهوى ، ومع الريح ، دون  
عِثار ودون صدام . ويبلغون الغاية ويحسبون أنه المنطق  
الصريح أبلغهم إياها . وما هي من المنطق الصريح في شيء .

\* \*

إن الناس يفكرون إذ يفكرون ، لا وفق ما يجب أن  
يكون ولكن وفق ما يحبون أن يكون . إنهم كثيراً ما يبلغون  
الغاية بغير الوسيلة . كثيراً ما يبلغون النتيجة التي يريدون ،  
دون تفكير ، ثم هم بعد ذلك يعملون المنطق ليأتوا لها بما يبررها .  
اختصم شابان من حزبين ، أحدهما وفدي ، والآخر حرّ  
دستوري . وكال كل لصاحبه الكيل مطّفاً ، فلم تبق في الدنيا  
حسنةٌ إلا وهي حسنته ، ولم تبق في الدنيا سيئةٌ إلا وهي سيئته  
صاحبه ، وسيئة حزبه . وسألت الوفدي ما حزب أبيه ، فكان  
ابن وفدي . وسألت الدستوري ما حزب أبيه ، فكان ابن  
دستوري . فهذا وفدي ، وهذا دستوري ، قضى عليها العرف  
بذلك قبل أن يولدا ، فلما ولدا ، وانتسبا ، وجب على كل منهما  
أن يبرر في عين نفسه ، وعين صاحبه ، صحة انتسابه .

وكما في السياسة تكون الحال في الدين .

هذا بوذى وهذا نصراني . ويتناقشان ويتجادلان زعماً  
بأنهما يطلبان هداية . وما الهداية طلباً ، ولكن تبريراً مأم  
عليه . كلٌّ يميل به ما تعود ناشئاً ، وما تعود عيشاً ، وما تعود  
تفكيراً ، لقد سبقت النتيجة ، فهذا بوذى من يوم ولد ، وهذا  
نصراني من يوم ولد . ولم يبق لهذه النتيجة إلا أن يكون لها  
فروض ومقدمات ، ففي سبيل تقرير هذه الفروض وابتداع  
هذه المقدمات يكون الجدل والنقاش .

إنها قطعة الرصاص مالت بالكرة ، مالت بالرأس ، فأنى  
له أن يستقيم .



وكما في الدين والسياسة تكون الحال في الوطنية .  
فهذا إنجليزى يرى أن الله بعثه وبعث أمته هُدى للناس  
ورحمة . وبمشها على الأخص لتمدين المستوحش ، وتقديم المتأخر ،  
وتغليب العدل حيث لا عدل ، ونشر الديمقراطية حيث  
لا ديمقراطية . ثم للوصاية على العجزة المساكين من الأمم خشية  
أن تأكلهم الذئاب . وتجادل الرجل العادى فيهم فيجادلك في  
كل هذا عن إيمان . فهكذا علموه صغيراً ، وهكذا زاغوا به  
ومالوا . وتسأل الإنجليزى عن الأمريكى فيقول لك إن فيه فجاجة



«الجدة ، ويحدثك حديثاً نفسانياً جميلاً عن دلائل ذلك . وتسأل  
«الأمريكي عن الإنجليزى فيقول لك إن فيه عَنَنَ القَدَمِ  
«وانحلال الشيخوخة .

وكما فى الوطنية تكون الحال فى اللون .

فى الأمس القريب جاء البرق نبأ غريب : قبض رجال  
«الشرطة بالولايات المتحدة على رجل أمريكى من أهل البياض ،  
«مرشح لأن يكون شيخاً من شيوخ الكايتول ، بتهمة أنه  
«جلس فى كنيسة فى الجانب الذى خُصَّص للزواج من أهل  
«السود ، فخرق بذلك قانون الولاية .

وكما للسود فى الكنيسة جانب ، كذلك لهم فى المواصلات ،  
«ولهم فى المجالس والشركات ، جوانب ، كلها حقيرٌ لا يحتلها  
«إلا ذو سواد . وحرّموا على السود أن يكون لهم حقوقٌ  
«سياسية ، وقد تأذن لهم القوانين ، ولكن لا يُبيح العُرف  
«الجارى ، فتنام الحقوق .

وضموا إلى اللون الأسود كل لونٍ لو تركز كان سواداً .  
«وأسموهم الملونين .

وكما فى أمريكا تجد فى إنجلترا . يدق المصرى الصعيدى باب  
«دار تكون أعلنت عن حجرة للايجار ، فلا تفتح ربة الدار فتري

هذا الوجه الأسمر الغميق حتى تردّ الباب كأنما رأت عِفْرِيثًا ،  
وتفعل ذلك بغتةً ومن غير فكر .

ومثل السمر الصفر ، أو هم بهم أكثر ضيقًا وأشدّ ريبةً  
وأكبر فزعًا .

إنه الزيغ العام المتأصل في العروق ، توارثوه أبا عن جدّ ،  
في غير نظر أو حكمة .

\* \*

والحرب تقوم بين أمة وأمة ، فيكون لا بد من إيقاظ  
الإحْنِ النائمة ، وإلهاب القلوب . فتكون دعايةٌ تعتمد على مافي  
العقول من زيغ سبق ، فالألمان قوم قساة يأخذون من الجثث  
أدهانها قدحًا على النار ، والطلليان قوم فنانون لم يُخلَقوا للحرب ،  
فهم في ساحة القتال يضعون البنادق على الأرض ليرفعوا القُرَشَ  
بالألوان إلى الأقمشة والألواح . والفرنسيون لهم ثورة وفورة .  
لا تلبث أن تفتّر ، فهم للهجوم لا للدفاع . والعرب أبناء  
صحراء ، الحياة عندهم رمال وجمال . وهكذا دواليك ، يُزجُون  
إلى الناس كلّ خبر ، يبنونه على كل ما سبق عندهم من أثر ،  
ليس إلا الزيغ وإلا الهوى ، لأنه ليس من نتائج المنطق ،  
وانكن من نتائج القلوب ، كيف توذّ الأور أن تكون .

\* \*

وتجادل الأغنياء في أسر الفقراء ، فيبلغ بهم الزيف أن ينكروا أن بالناس فقرا . قال بعضهم إن الدنيا بخير ، وإن الفقر هذا الذي تصفون إشاعة لا حقيقة لها ، يروجها ذو غرض أئيم . وإذا ذكرت الجهل قالوا إن الجهل أنفع للناس ، ويدورون يُثبتون لك بالحجة ، وعلى براءة ظاهرة ، فضل الجهل على العلم ، وما فيه من راحة ، وما فيه من قناعة هي السعادة لو درى الغافلون .

\* \*

وتنتقل من كبار الأمور إلى صغارها ، من الأمم والجماعات ، إلى الأشخاص والأفراد ، فتجد الزيف صاحب الأمر والنهي فيهم ، والمتحكم في العلاقات ، فهو الذي يَصِلُها وهو الذي يقطعها ، هو الذي يُحسن وصلاً إذا وصل ، ويُسيء قطيعةً إذا قطع . يحب زيد عمروا ، وتسأله لماذا أحبه ، فيأخذ يفتش في نفسه عله يجد سبباً حاضراً لنتيجة سلفت . ويكره خالد ماجداً ، وتسأله لماذا كرهه ، فيأخذ يفتش في قلبه عله يجد سبباً حاضراً لنتيجة سبقت . وقد يكون ماجدٌ ، على المنطق ، أجدر بحب ، وقد يكون عمرو ، على الحجة ، أولى بكراهة . وقد تأتي التجربة مصدقة لما قال المنطق وهدت إليه الحجة .

\* \*

إن الزينغ في عقول الناس ، وفي قلوبهم ، عدو المنطق ، وعدو الحياة ، وهو سببٌ لكثير مما ترى فيها من شقاء ومن أرزاء ، في البيت ، وفي الشارع ، وفي الأمة الواحدة ، وبين الأمم ، ولستُ أحسبُ أني أريد من أحد أن يُقلع عن زينجه ، فزينغ العقول صفةٌ لها أصيلة لا يمكن أن يكون عنها إقلاع . إن الزينغ من بذية العقل ، من تشكّله ومن تصميمه ، ككرة الحشيش إذا دحرجت عليه ، بها ما بها من ثقل ، أو بها ما بها من تحدّب جانب دون جانب . لم يكن لها اختيارٌ إلا أن تميل .

ولكني أود لو يفعل الناس برءوسهم فعل مدحرج الكرة بكرته . إنه يقدر ما فيها من زينغ ، ويحسب ما فيها من عوج ، ثم هو يُطلقها طليقةً تترامى عوجاء ، ولكنها تُصيب الهدف تماماً كما تُصيبه الكرة الأخرى التي ليس فيها ثقل ، ولا زينغ ، إذا أُطلقت مستقيمةً غير ذاتِ اعوجاج .

## الكذب ، في قديم الزمان وحديثه

إن الكذب قديم ، وعرفه أبناؤه منذ عرفوا  
لأن الإنسان قديم . الأرض ومارسوه وألقوه .  
وأهل الكتاب ، فهذا الوجود كله ، في  
والمسلمون ، يؤمنون بالجنة ، هذه الدنيا ، مؤسس على . .

كذبة .

وكما بدأ  
الإنسان قديماً على  
هذه الأرض  
بالكذب كذلك  
يبدأ كل رجل

والآدم يقضى عليك ،  
إذا نزل بك أنقل خلق  
الله ، أن تلقاه بأعلا  
وسهلا ، وما عندك له  
أهل ، ولا مكان سهل .  
ويودعك فتقول العود  
أحمد ، وأنت تمنى أن  
تعاودك الحمى ولا يعود

وبآدم ، وإبليس ،  
وبأن إبليس  
كذب على آدم  
في الجنة ، فأغواه  
فهبط منها إلى  
الأرض «فوسوس

إليه الشيطان ، قال يا آدم ،  
هل أدلك على شجرة الخلد  
وملك لا يبلى .  
وعرف آدم الكذب  
قبل أن يعرف الأرض ،  
يولد على هذه الأرض ، وكل  
امرأة ، بالكذب ، إنها صورة  
الجنس القديمة تراءى في صور  
الفرد إذ تتجدد . إن الطفل  
يبدأ حياته فيقول غير الحق ،

لأنه لا يعرف ما الحق . إنه يعيش في عالم كله خيال ، وكله أحلام ، لا في عالم الحقيقة . ولكنه لا يلبث أن يدخل عالم الحقائق ، حتى يكذب ، لأنه سبق أن صدق فتأذى . إن الطفل مخلوق على الفطرة وهو لا يدرك بعد من أمر التقاليد الذي اضطلع عليها المجتمع شيئاً ، ولا يدرك ما يترتب على قول الكذب في روابط الناس من فساد ، ولكنه يدرك أنه لا بد أن يدفع الأذى ووجد الكذب أقرب دفاع .

إن الصدق من فضائل القدرة . والكذب ، إن عُدَّ حتى في الطفل رذيلةً ، فهو رذيلةٌ من رذائل الضعف . ولن تجد أضعف من طفل .

فالإنسان ، من حيث أنه جنس قديم ، ومن حيث أنه فرد حديث متجدد ، بدأ وجوده ويبدأ بالكذب .

\* \*

هكذا أخذت أفكر ساعةً ، بعد أن وضعت سماعة التلفون حيث وجب أن توضع ، وبوضعتها ختمت حديثاً قصيراً ، كشف فيه إنسان يذوق عن بعض المكثون في طبعه ، طبع الإنسان ، من كذب .

كان الرقم الذي أدركت له الآلة التلفونية رقماً خاصاً لمدير

مصلحة . وإذا صوت بجيب : النمرة غلط : واستفتيت من  
أعطاني الرقم ، فأكد أنه الرقم الصحيح . وأدريت به الآلة ،  
فجاءني الرد من جديد : النمرة غلط . قلت له : إن سكرتير  
المدير نفسه يقول إن هذه عمرته . قال في غضب زائد : إذن  
فالمدير ليس في حجراته .

صوت من هذا ؟ لم أدر .

ولم أدر كذلك هل أَرْضَى أم أغضب .

ورُحْتُ أَسْأَلُ باستخبار القرون ، واستخبار رجالها ، من  
كل ذي رأي وكل ذي دين ، في قديم الزمان وحديثه ،  
رَحْتُ أَسْتَخْبِرُهُم عن الكذب ، أشرُّ كله أم خيرُّ كله ، أم هو  
بين هذا وذاك . وهل من الكذب الأسود ، وهل منه الأبيض ،  
أم منه كذلك الأغبر الذي هو بين السواد والبياض .

\*\*\*

سألت دارا ، عظيمَ الفرس ، عن الكذب . قال : ألم  
تقرأ بعد ما كتبناه في الصخر والحجر ؟

وذهبت أقرأ في الصخر والحجر ، فإذا دارا يقول : أيها  
الملك الذي يأتي من بعدى ، جنب نفسك الكذب . وإذا  
وجدت رجلا يكذب ، فاقس عليه ، فما ذهب بالمالك شيء  
كالكذب (الكذب) أيقظنا مرة - (المعنى) لا يجازي ثوابه

وسألت أفلاطون ، حكيم الإغريق ، عن الكذب . قال :  
 ألم تقرأ بُجُهوريتي ؟

ورحت أقرأ بُجُهوريته ، فإذا به يصف الكذب ، بين  
 الفرد والفرد ، بأنه عملٌ مؤذٍ هدام ، إلا أن يأتيه طيبٌ ، أو أن  
 يكون كذبا يقال في سبيل الدولة . فكان أفلاطونُ بذلك أولَ  
 من عَلِمْتُ أنه أجاز الكذب فلم يذمه إطلاقا . وكان أول من  
 أجاز لرجل الدولة أن يكذب ، ومن رجل الدولة انتقل  
 الكذب مأذونا به إلى كل رجل سياسة .

وعُدْتُ أسائل النبيين ، من قبل دارا والإغريق ،  
 ما الكذب . فوقفت عند الوصايا العشر طويلا ، أقرأ وأتمجب :  
 ليس فيها عن الكذب نهى وأى وصية أقنُ بالناس من أن  
 « لا تكذبوا » . فقلت لنفسى لعل صاحب الوصايا لم يشأ أن  
 يرتبط بتحريم الكذب جملة . وعدت أقرأ ، فإذا به يحرم  
 شهادة الزور . وشهادة الزور بعض الكذب . وزدت في ظنى  
 استيثاقا . ولكن لم ألبث أن قرأت للأنبياء تحريما للكذب  
 جملة ، فقلت : وقد تخطى الظنون .

وسألت بولس الرسول ، قال : ألم تقرأ رسالتى إلى أهل



كولوسي؟ وذهبت أقرؤها ، فإذا به يقول فيها : لا تكذبوا  
بعضكم على بعض .

ورحت أسائل أرباب الكنائس الأولى ، حتى وقعت عند  
أوغسطين . قلت : ما الكذب؟ قال : رذيلة لا تغتفر . قلت :  
ولو كان من ورائها جلب خير أو دفع شر؟ قال : إن الكذب  
رذيلة في كل مكان وكل زمان .

ورحت أدور على أتباعه ، فوجدتهم جميعاً على رأى واحد ،  
بل وجدت الكتلبة كلها على هذا . حتى وقعت على رجال  
من تأخروا ، وجدت عندهم إيانا .

قلت لأحدهم : ماذا تقول لقاتل جاء يسألك عن ضحيته ،  
وقد خبأتها أنت في بيتك؟ قال ، بعد تردد : أقول ليس في الدار  
أحد . قلت : إذن فتكذب . قال : لا ، إنها كلمة صادقة قلت  
منها بعضاً ، وحفظت في نفسي بعضاً . قلت : زدني علماً . قال :  
أردت أن أقول له ليس في الدار أحد يجوز لي أن أكشف لك  
عنه ، ولكني أعطيت له من الجملة صدرها ، واحتفظت بمجزءها .  
قلت : وما تسمى ذلك؟ قال : نسميه احتفاظاً عقلياً .

ووصلت الحديث أسأله : وإذا اعترف لك وأنت القس  
الكاثوليكي ، من الشعب معترف ، وأفضى لك بمكنون سره .

وجاءك من يسألك ، هل أفضى لك فلانٌ بكذا ، فما أنت مجيب؟  
قال : أجيب بأنه لم يُفضِ لي بشيء . قلت : واحتفظت  
— لا شك — في عقلك ، ببقية من جملة ، أنك لم تفض بشيء  
« مما يجوز لقس أن يبوح به » ؟ قال : نعم ، هو ذاك .

وخرج على الكنيسة من بعد ذلك خوارج . وجئت  
أسألهم في الكذب . وكان مسئول بروتستانتيا . قلت : ماذا ترى  
في « الاحتفاظ العقلي » الذي يعصم من الكذب ؟ قال : إنه  
الكذب المباح . قلت : وهل في الكذب ما يباح ؟ قال : إن  
الاحتفاظ العقلي « لف ودوران » . إنهم يكذبون ولا يريدون  
أن يسموا ذلك كذبا ، وعدت أسأله في أمر القاتل الذي جاء  
يطلب عنده ضحيته وقد خبأها في داره . قال : أقول ليس في الدار  
أحد ، وأكذب متعمداً . قلت : وكيف تبرر ذلك ؟ قال في لباقة  
بارعة : إن عليّ في هذا الأمر ولائين ، ولاء للحقيقة يقضى عليّ  
بالصدق ، وولاء للعدالة يقضى عليّ بالكذب . وإذا تعارض  
الولاءان ، ولاء للحقيقة وولاء للعدالة ، جنحتُ إلى العدل  
فنهضت الجريمة ، وعلى الصدق العفاء .

وعدت إلى الإسلام ، إلى محمد ، فردّني إلى القرآن ، فقرأت  
فيه « انظروا كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا »

وقرأت حديث محمد فإذا به يقول : « الحرب خدعة » . والخدعة هنا في الدفاع عن الدولة . وبذلك قال أفلاطون من قبل ، وقرأت عن محمد أنه خرج للهجرة ، فَلَاقِيَهُ في الطريق أعداء له طالبون . قالوا : من الرجل ؟ يعنون من أى قبيل . قال محمد : من ماء . وماء اسم قبيلة ، ولكن محمد عَنَى أنه خُلِقَ من ماء ، فلبس بذلك عليهم . فإن صحَّ هذا ، فقد أجاز محمد التلبس خروجاً به عن الكذب ، في الموقف الحرج . والتلبس في الموقف الحرج ، بحثٌ بحته الفلاسفة وأجازوه ، من قبل محمد ومن بعده .

\*\*\*

ثم من محمد هبطت في الزمان هبوطاً كبيراً ، إلى الأحدين من الحكماء والمفكرين . وساءلت هؤلاء ، فعلت أنهم نالوا الكذب بمِشْرَط الجِرَّاح ، يقطعونه ويشرحونه ، كأنه جثة على منضدة ، في مدرسة من مدارس الطب الحديث . وخرجوا على أن اللسان قد يكذب بالقول الكثير ، وقد يكذب بالقول القليل ، وقد يكذب بالحذف ؛ وقد يكذب حتى بالصمت . ولعل من هذا جاءت تلك الصيغة المعروفة التي يُفَرَض على الشهود قولها في المحاكم قبل الشهادة : « أقول الحق ، وكل الحق ، ولا شيء غير الحق » . وخرجوا كذلك على أن اللسان قد يكذب ، وقد

تكذب العين ، وقد يكذب الوجه ، وقد يكذب القلب ، وشر  
أكاذيب القلب أ كذوبةٌ يكذبها على صاحبه .

وكما يكون الكذب بالقول ، يكون بالعمل ، وهو إذن  
يشمل الخداع والخيانة والغدر والسرقة كذلك .

وجعلوا الكذب مراتب ، تخفيفاً عن ابن آدم في محنته  
وجعلوا منه الأبيض والأسود .

وشر الكذب ما عمد به صاحبه إلى الإضرار بالغير ، إضراراً  
مؤكدًا ، وأقلُّ شراً من ذلك كَيْدٌ يأتيه المرء ليتوارى فيه ،  
ويدفع به عن نفسه ، وقد بالغ بعضهم فقال : إن الصدق لا يجب  
إلا بين الأنداد ، أما بين القوى والضعيف ، في غيبة القانون ، حتى  
وفي حضرته على ضعف ، فالكذب يدفع به الضعيف عن نفسه  
إذا لم يستطع أن يدفع بالقانون . من أجل هذا يكذب الفلاح ،  
ويخدع . وقد كذب وخدع منذ كانت الأرض ، وكان الإقطاع :  
ولقد خفَّ الكذب خفَّةً ، في ملابسات عدَّة ، جعلت  
منه شيئاً عادياً مقبولاً ، لأنه جرى عليه اتفاق عام ، وأمنت عليه  
أساليب جارية بين الناس أسموها آداباً .

فالأدب الحاضر يقضى عليك ، إذا نزل بك أثقل خلق الله ،  
أن تلقاه بأهلاً وسهلاً . وما عندك له أهل ولا مكان سهل .

ويودعك فتقول آنستنا ، والعمود أحد ، وأنت تمنى أن تعاودك  
الجمي ولا يعود . والذي خفف من هذا الكذب وأمثاله ، أنه  
كذبٌ مفصوح ، عند قائله وعند سامعه . كالقصة يكتبها  
القصاص ، ليس بين وقائعها والحق نسبٌ ، فهي كدبة عريضة  
لا شك فيها . ولكن يذهب بما بها من كذب أن الناس تقرأها  
وتعلم أنها الكذب ، وأنها الخيال :

وكأساليب الأديب أساليب النداء والخطاب . تكتب لرجل  
لا تعرفه ، أو تعرفه ، ويهون عليك كل الهون ، فتقول :  
« عزيزي فلان » : وتحتّم فتقول : « وتفضل فتقبل فائق  
احترامي » ، وقد لا يكون بك له شيء من احترام . وتدعو  
فلانا بصاحب العزة ، وهو بصاحب الذلة أجدر . وتدعو فلانا  
بصاحب السعادة ، وأنت تعلم أنه في بيته صاحب شقاء . وتدعو  
آخر بصاحب الفضيلة وقد يكون برب الرذيلة أقمن .  
ألفاظ جوفاء ، يعلم الكل أنها جوفاء . فهي من أجل  
هذا أكاذيب بيضاء .

\*\*\*

وبينما يفكر المفكرون ، ويقرر الحكماء ، ما الصدق وما  
الكذب . وما الخفيف منه والثقيل ، يجري بن آدم ، منذ كان

آدم ، على طبعه في تسهيل الحياة ، والإفلات من مضايقتها ومعاركها ،  
بالكذب ، ما أفاده الكذب حاجة عاجلة . وهو يخادع ، وهو  
ينافق ، وهو يسرق ، ما جرّ له ذلك في يومه أو غده القريب مغمماً ،  
أو دفع عنه مغمماً . وأقول غده القريب ، لأن أكثر الناس قصار  
النظر ، وهو قصر لا تصحّحه العدسات وهي من زجاج .

وقد تفنن الباحثون الأحداثون ، في الكشف عن خبايا  
الأنفس ، وفي فضح الضمائر ، بالآلات أحياناً ، وبالسؤال والجواب  
أحياناً ، وبالحيل أحياناً ، وخرجوا من ذلك على أن أكثر الناس  
كاذبون منافقون ، وأنهم أكثر كذباً وأكثر نفاقاً ، ما أمّنوا  
الكذب أن يكشف ، والنفاق أن يفضح :

عهد رجلان باحثان إلى أمانة طوائف من الناس يمتحنونها .  
وامتحننا فيما امتحننا رجالاً في نحو من ثلاثمائة وخمسين جراحاً ،  
وقفوا عندها بسيارة أصابها بخلل مقصود . وكان الخلل هيناً  
تصلحه نظرة سلك ترحّح عن موضعه . فكان رجل الجراح  
يصاح هذا الخلل ، ويدّعى إصلاح غيره ، بالكذب ، وبطالب  
من أجل هذا الذي لم يفعله أجراً كبيراً . وغلب الخداع  
فأصابهما في ثلاثة وستين جراحاً من كل مائة من الجراحات  
التي وقفوا عندها .

ووصلنا هذا البحث ببحوث غيره ، وفعل غيرهما من  
البحاث مثل ما فعلا . عند مُصلح الراديو . وعند مُصلح  
الساعات . بين خدم الفنادق ، ومستخدمي المخازن . وكتبة  
البنوك . وغير هؤلاء وهؤلاء . وخرجوا جميعاً على نتائج  
متقاربة ، أن نحواً من ثلثي هؤلاء الناس لا أمانة عندهم .

\*\*\*

لا تلعن يا صاحبي ، ولا تنع الناس ، ولا تسب الدهر ،  
وتنسى نفسك . ولن ألعن يا صاحبي ، ولن أنعى الناس ، ولن  
أسب الدهر ، وأنسى نفسي . ذلك أن صناعة العيش مُرهقة ،  
والطبيعة ، والطباع ، وأوضاع الحياة كثيراً ما تكون مُجحفة .  
وهذه الأرض البسيطة ، ما بُسِطَتْ ، لتكون أرضاً حراماً ،  
وإلا فما فضل المساجد والكفائس والبيع .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة ،  
قالوا أجمع فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح  
بمحمّدك ونقدّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون » .

## خذوا الدنيا، غلاباً واغتصاباً

سألني بعضهم يوماً : فيه المضاب وفيه الوهاد .  
 ما الحياة ؟ فقلت على الفور : وما يكاد المرء يخلص فيه من  
 إنها عمل ، يحدوه أمل . عقبة حتى تطالمة عقبة .  
 وحسبت ساعة أن والناس في تلقى العقبات  
 السجعة غلبتني في صياغة هذا تختلف طبيعة ومزاجاً ،

الجواب . وعدت  
 أغير فيه ، لأفسد  
 ما فيه من سجة ،  
 ولأذهب عنه  
 بتهمة الصنعة ، فما  
 بن الله جعل للناس أعيناً  
 في وجوههم ليسيروا بها  
 قدماً ، ولو أراد الله  
 للرجل منا أن يتقهقر  
 لركب له في قفاه أسيلاً

وجدت خيراً مما فيه : حسب ما عنده من قوة .  
 والحق أن الحياة عمل  
 للأمل ، وسير لغاية .  
 والسير على سطح الحياة  
 كالسير على سطح الأرض ؛  
 وما لديه من جهاز ، واختط  
 خطته ، وممته ، فإذا به  
 يسقط واقعاً على رجليه في  
 الجانب الآخر من العقبة ؛



وإذا به ينفذ عن نفسه الغبار ويستأنف السير على انبساط ،  
حتى تترامى له عقبة أخرى في سبيل الحياة ، فيعالجها كما عالج  
أختها ، مواجهةً ومواجهة .

ومن الناس الرجل الذى إذا صادف عقبة تلقاها بالتحول  
عن سبيلها إلى سبيلٍ غيرها ، وقد يتحول تحولاً كاملاً فيطلب عملاً  
غير عمله ، وقد يتحول تحولاً ناقصاً ، ثم هو يستتم الفراغ الحاصل  
في وقته ، وفي نفسه ، وفي أمله ، بهويّة كائنة ما كانت .

ومن الناس الرجل الذى إذا صادف عقبة تلقاها بالوقوف  
أمامها ، أو بالعود عندها ، فلا هى تتحرك ، ولا هو يتحرك .  
وتستشعر نفسه الخيبة . والنفس تأبى استشعار الخيبة ، وفي سبيل  
نفذ هذا الشعور بالخيبة تسلك النفس مسالك شتى .

\*\*\*

ومن المسالك التى تسلكها النفس لتنفض عنها الشعور  
بالخيبة ، لومُ الناس والأشياء فيما أصابها . فقد يتعثر الرّجل في  
حجر ، فإذا به يركل الحجر برجله ركلاً ، تأديباً له واستشفاء ،  
وهو لا يزيد رجليه بذلك إلا إدماء . وهو مع الناس يتهم الناس .  
يتهم رئيسه بالغفلة أو بالغباء لأنه لم يقدر مابه من مواهب . وقد  
يتهمه بالتعصب ، وقد يتهمه بالمحاباة . وإخوانه ، ممن سبقوه ،

وتأخر عنهم ، يروح يجد في كل منهم سبباً للخطأ بهم والويل  
منهم ، إن لم يكن في الصفات التي تتصل بعملهم ، ففي الصفات  
التي تتصل ببيتهم وأهلهم ، وبنواحي الحياة الأخرى .  
فغيبية الناس ، وأكل لحومهم ، وتقطيع فرائسهم ، كثيراً  
ما تكون لغير ما سبب إلا خيبة أصحابها هؤلاء العيابون المغتابون ،  
الآكلون للحوم ، القطاعون للفراء .

وفي ذلك قال البعثرى قولاً جميلاً :

وكانما شرف الرفيع إذا انتمى جرمٌ جنّاه على الوضع الأصغر .

\*\*\*

ومن المسالك التي تسلكها النفس لتنفذ عنها الشعور  
بالخيبة ، الترفعُ والتعالى : إن الخيبة قد نزلت بهم في أعين الناس .  
فلا بد من أن يرتفعوا ، لا إلى مستوى كانوا فيه ، ولكن إلى  
مستوى أعلا وأسمى : إن هذا يَبْهَرُ الأعينَ ، والعين إذا بَهَرَتْ  
فهي لا ترى ، وهي إذا لم ترجزت عن التصديق والتكذيب .  
والجماهير على كل حال قريبة التصديق ، وفيها دائماً الفئاتُ  
الضعيفة المتخاذلة التي هي دائماً على استعداد للتصاغر عند رؤية  
من تكابر . وصاحبنا يرى في تصاغر الضعفاء لتكابرهم رفعةً له  
وعزة ، وشفاء لنفسه من خيبة .

ومن الناس من يجد الخيبة في علمه ، فيروح بتكاثره عند  
الناس بماله . ومنهم من يجد الخيبة في علم ومال ، فيروح يجد  
العوض في أب ثرى أو جد نابه . وقد يجد الفرد في أمته الحاضرة  
ما يشعره الحطة ، فيروح يحتج بما كان لأمته في سالف الزمان ،  
وغابر الوقت والأوان .

والناس دائما ، إذا أعوزهم الرضا عن حاضرهم ، عن خيبة ،  
ذموا زمانهم . والرجل لا يذم زمانه إذا اغتنى وتيسرت له الأمور .  
ولكنه يذم إذا ضاقت به السبل وتعسرت به الأمور . فهو يذم  
هربا مما هو فيه واعتذارا . وفي مثل إلك قال المتنبي :  
أتى الزمان بنؤه في شببيته فسرهم وأتيناها على الهرم  
ونحن نعلم كم خاب المتنبي ، وكم أخطأ في إصابة مرماه .  
وهو الذى قال في صباه :

أى محل ارتقى أى عظيم أتى  
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق  
محتقر فى همتى كشجرة فى مفرق

ومن المسالك التى تسلكها النفس لتنفذ عنها الشعور بالخيبة ،  
أن تبحث عن فلسفة تتوارى فيها ، وترقد تحت ظلالها الوريقة  
الباردة . وتحت هذه الظلال ستفسر لها الخيبة بأنها عمل غير

شائن ، بل شيء لا يُؤْبَهُ له أبداً ، لأنه لا يوجد في الحياة ما يُؤْبَهُ له . وتحت هذه الظلال سينسج الفكر لصاحبه نسيجاً غير ما تنسج سائر العقول ، ويبنى له الخيال دنيا غير دنيا الناس . دنيا أشنق وأرحم ، بها منطق أرق وأحن ، وهو منطق يهدف إلى النفي أكثر من هدفه إلى الإثبات ، وإلى التأجيل أكثر من التعجيل ، وإلى الجمود أكثر من الحركة ، فهو لذلك أوفق لغير ذى توفيق ، وأهدأ لنفسه ، وأكبر امتزاجاً بمزاجه .

وقد لا تصعد ثقافة الرجل إلى الفلسفة فيتخذ لنفسه مسالكاً من نوعها ، ولكنه دونها قدراً ، فيتصل بالمنجمين ومن يحضرون الأرواح ، فيعيش في الغيب المحجّب على لذة وإطمئنان لم يجدهما في الحاضر المكشوف .

\*\*\*

والدين واردوه من الناس صنفان ، صنف سمع القول المأثور : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ، فاستطاع أن ينتفع من هذا القول المأثور بشطريه ، دنياه وآخرته . وصنف حاب فيما تطلبت دنياه من جهد ، ومن حزم ، ومن مصابرة ، فاحتسى من خيبته في الشطر الثاني من هذا القول ، في آخرته ، فظل يعمل لها وحدها كأنما هو يموت غداً ، ونسى أنه مات بالأمس .

ومثلُ هذا الرجل عزّ عليه أن تنال قدماء الأرض فتتمكنَ منها وهو في تيار الحياة الجارف ، فقذف به تيارها إلى هامش الحياة . فهو في الحياة وليس فيها . وقد يكون في أول الحياة عمرأً ، ولكنه يستعجل خاتمتها مزاحاً ، وهو يزهد في الدنيا ولكن بعد أن زهدت هي فيه . وقد زهد الخلفاء الراشدون في الدنيا ، ولكن لا على البطالة ولكن على العمل . والعمل لا لأنفسهم ، ولكن للناس . كان زهداً في نجاح ، لتأسيس دين وتأسيس أمة . والأديرة كثيراً ما يدخلها من عضتهم الحياة بذابها . عملوا للدنيا ففشلوا ، ونان الفشل من عزّتهم ، ونال من كرامتهم . وفي الدير تصحّ العزة المثلومة ، وتُسترجع الكرامة المعضومة . إن الفاشل إذا بقي يسير في طرقات الداس ، مشى بعد خيبة على فقر وعلى ذلة ، فيتألم . ولكنه في الدير يسير على فقر وعلى ذلة ، فيرتاح . إذن فالدير له أروح ، وبيت الله أندى وأندح .

ومثلُ الذي يتوارى من فشل في الدين ، كمثّل الذي يتوارى من فشل في شعر وفي أدب . إن كثيراً من الحبر الذي سال أسود من شقوق الأقلام على الورق الأبيض ، إنما كان دمّ الكتّاب الأحمر سال من شقوق قلوبهم بعد أن عصرتها الخيبة ، وضمضمها للفشل ، في حبٍّ أو أمل .

كم كاتب ذاق العقر ، وذاق بالفقر المرّ ، وضاق حتى كاد  
يُطَقُّ ، ففش ما به في كتاب ، فوجد من ذلك الراحة وهى  
كراحة الدَّمَل إذا خرج خَبَثُهُ .

وكم من شاعر فشِل في استجداء فاحتمى في الهجو ، وآخر  
فَشِلَ في الهوى فاحتمى في النسيب .

وقائلة وارحمنا لشبابه فقلتُ أجل وارحمنا لشبابها  
أصاحبة المسكين ، ماذا أصابه؟ وما باله يمشى الوجى متفاهيا ؟  
وما باله يبكى ؟ فقالت لما به ألا إنما أبكى لما لا لما بيا  
بنى عم ليلي ، مَنْ لكم ؟ غير أننى مُجِيدٌ ليلي ما حَيَّيت القوافيا  
وحقاً لقد أجاد ما عاش القوافي ، ولكنه أجادها لنفسه  
لا ليلي . إن الشاعر بكاء شكاء ، والبكاء والشكوى شفاء الفشل  
والخيبة . شفاء الفشلِ والخيبة في الحب لا في الشعر . قال شعر  
جميل ، وهو باق على الزمن ، يتعزى به الفاشلون ممن لم قلب  
الشاعر ولهم فشله ، وليس لهم لسانه .

\*\*\*

ومن المسالك التى تسلكها النفس عند الفشل ، أنها إذا  
عارضتها ريحٌ لم تُقابلِ معارضةً بمعارضة ، ولكن تذهب مع  
الريح حيثما ذهبت . وصاحبُ هذه النفس يقول لا عند ما يقول

الناس لا ، ويقول نعم عندما يقول الناس نعم . فإن كان في عمل  
تذبذباً برغبة صاحب العمل كأحسن ما يتنبأ بالجوِّ رُصَّاده ، فسبق  
إليها . وإن كان في سياسة صقّ في سواد الناس عندما يصفقون ،  
وهتف ، بالودِّ أو بالضد ، عندما يهتفون . علّته الحياة الفاشلة  
أن الميوعة كسب ، والصلابة خسران . وأن الماء السائل يذهب  
أبعد مما يذهب إليه الصلب الجامد .

\*\*\*

فتلك يا صحابي بعض ما يهرب إليه الهاربون الفاشلون  
الحيّيون في الحياة . يحتمون من الفشل بالتهم يُلقونها ، أو بالغيبة  
يأتونها ، أو بالكراه والحسد ، أو باصطناع الرفعة والعلاء ،  
أو بالتكاثر يفضل ليس لهم ، أو بالتفاخر بماض لا يأتلف مع  
حاضرهم . وهم قد يحتمون بفلسفة أو دين ، أو يتوارون في شعر  
أو أدب ، أو يجزؤون مع الحياة حيثما تجرى ، كالعود فوق الماء  
الجارى ، وكالريشة في مهب الريح .

وليس شيء من هذا من الحياة الناجحة في شيء .

إن الحياة جهاد ، وصعابها لا يلقاها الإنسان بظهره ، ولكن  
بوجهه ، وقد يعلو وجهه في الصراع التراب ، وقد يجرحه في  
الصراع الظفر والذنب ، ولكن تعلوه آخر الأمر ابتسامة

النصر ، فتزين الوجهَ الجريحَ الأغبر .

إن الذين يهربون من الحياة ، يعارضون مشيئة الله في الحياة . إن الله جعل للناس أعيناً في وجوههم ليسيروا بها قُدماً ، ولو أراد الله للرجل مناً أن يتقهقر لركب له في قفاه أعيناً .

نحن هنا في الدنيا ، لئلا نأخذ من الدنيا ، لا لتأخذ الدنيا منا .  
والدنيا لا تؤخذ إلا غلاباً واغتصاباً .



## الحمار الحزين

حدث الذي أحكى في      ونحن ساكنون جامدون ،  
 عزبة صديقنا زعتر ، بالقرب      قد ثقلت بقا الجفون ؟  
 من قايوب : جلسنا نستدفئ      حتى نطق صاحب الحمار ،  
 في الشمس من بعد غداء ،      قال : ها ، يابن الكلب !  
 وقد ثقل الطعام بالأمعدة ،      عندئذ هب من غفوته من  
 وثقل بالألسنة      بيننا أسيتيد في  
 فصمتت طويلا ،      في علم الأشياء  
 حتى مرة عامل      يقول : ابن  
 ومعه حمار ، وعلى      الكلب ؟ ابن  
 الحمار تراب يحمله .      الكلب إزاي !

إن دنيا ، لا ينطق فيها  
 حمار ، دنيا كئيبة حزينة ،  
 لا يطيب فيها عيش ،  
 أو يتم هناء .

وقد حزن الحمار فما أراد أن      لا يمكن أن يكون الحمار ابن  
 يمضى . فأهوى عليه العامل      كلب : هذا مخالف للدواميس .  
 بالعصا ، وهو لا يريد أن      قال مدرس القرية : إن  
 يمضى : وزاده ضرباً فزاده      لم يجز هذا يا سيدي علماً ،  
 إباء . ووقع كل هذا الضرب      فقد جاز لغة . ألم تسمع قط

بالتشبيه والاستعارة ، وبالمجاز والكناية ، وبغير ذلك من صنوف  
البلاغة . ألا تقول ههنا قمر وزيد ههنا ؟

قال أسيديذ علم الأشياء : لا ، أبداً ، أنا لا أقول هذا : على  
أن اعتراضى قائم على الحقيقة والمجاز على السواء . أأنت ترى  
يا عزيزى أنك بمجازك هذا قد تجاوزت حدود الأقدار . إنك إذا  
قلت إن الحمار ابن كلب ، فكأنما قلت الحمار كلب : فابن  
الكلب كلب كأبيه ؟ هذا منطق سليم لا شك فيه . وإذن  
تكون قد وضعت هذين المخلوقين فى مرتبة واحدة . وأين  
الحمار من الكلب فى مراتب الحيوان : وأين الغباء من الذكاء ؟  
وأين البلادة من النشاط ؟ وأين ... ؟

ونظرتُ إلى الحمار ، وقد كف عنه حامل العصا ، فوجدته  
قد مال بعمقه إلينا ، وأخذ يحدِّجنى بعينين واسعتين يكاد يقطر  
منهما الحزن والأسى .

فهزت نظرتى الكئيبة أريحيتى ، كما تهز أريحية كل  
كريم ، فوجدتنى أنطلق من حيث لا أحسب ، أدافع عن هذا  
المسكين دفاعاً حاراً أثار إعجاب الحاضرين . فما كان منهم إلا أن  
طلبوا منى حديثاً مكتوباً ، يكون منه للأجيال عبرة ، ويبقى على  
السنين : وانصرفت فكتبت هذا الحديث . وهو حديث طويل ،

لهذا أجتزئ منه هذا بالقليل . وأسميته نفثة المصدور ، في الدفاع عن الحمير .

قلت فيما قلت :

إني أستفتح حديثي باسم الله العلي العظيم ، ليكون له من ذكر الله شيء من المهابة والجلالة ، فحديث الحمير قل أن يكون حميياً وقوراً . إن الأمر جد لا هزل فيه ، فهو يختص بنصرة للضعفاء ، بنصرة فئة من الخلق جار عليها الزمان ، وجار طويلاً . وقد آن أن يدافع عنها عند سائر الخلق مدافع .

ولماني في دفاعي إن أتوخي الجمالة ، ولو أن الجمالة قد اتصلت أسبابها في حياتي بيني وبين كثير من الحمير . ولماني في دفاعي إن أمالي أحداً منها لعصب أو نسب ، فما اتصلت مع الأسف الشديد بيني وبينها أعصاب ، ولا انعقدت أنساب . وبعداً بالرغبة في أمر خطير كهذا ، سأبدأ دفاعي بشهادة قوم أعاجم هم أبعد ما يكونون عن قبيل الحمير عصباً أو نسباً ، لأنهم من بلاد ليس الحمير من سكانها : فالحمار عندهم تحفة ، لم تحط من قدره لديهم ألفة .

قال السير أرثر طمس : إن الحمار بين الحيوانات شيء نادر ثمين ، وهو ذكي من تحت غبائه الظاهر ، وهو يحب ويرد على الحب امتناناً . وهو فوق ذلك فيلسوف ، وليس ما يقال فيه غير

ذلك إلا نتيجة مؤامرة عظمى اشترك في حَبْكها كلُّ البشر .  
والسير أرثر رجل عالم جليل وهو يدري ما يقول :

وقال بوب ، الشاعر الإنجليزي المعروف : ونفخَ الحمارُ في  
بوقه عالياً والبوق لا يخرج منه إلا النغم الجميل :

وقال سويفت ، الكاتب الشهير ، صاحب الكتاب  
الأشهر ، أسفار جِلْفَر ، قال يصف الحمار عند ما ينهق : إنه مُبَابِل  
يغنى في ليل .

وقال كُوبَر ، وهو شاعر آخر غير منقوص . قال عن  
الحمار : إنه يصدق بالنغم أعلى ما يكون ، وأصفى ما يكون .

وآخرُ استمع إلى الحمار طويلاً وضحك طويلاً . قال : إني  
أتمدّى إنساناً ، كائنًا من كان ، أن يستمع إلى نهيق الحمار ،  
لا سيما إلى أنعامه الأخيرة ، تلك الأنعام الختامية الحزينة ، ثم  
لا يضحك . إن الحمار يبدأ بأنغام قوية حماسية ، كأنما هي أنغام  
الموسيقى العسكرية يسيرُ عليها الجند للقتال . ثم لا تلبث هذه  
الأنغام أن تتراجع ، فتقلب إلى أصوات مُفجعة خاوية باكية  
شاكية ، فكأنما ذكر الحمار حُظوظه ، وذكر أحزانه ، فبكى .

وأي حظوظ وأي أحزان .

إن الحمار ابن الصحراء ، أرضٍ الطلاقة ومَسْرَحِ الحرية ،  
والْبُجُوحَةِ التي لا يَحُدُّها إلا الأفق . إنه يبكي فيها دياره ويبكي  
أيامه تلك التي انطوت من ساعة استأنس وعاشر الإنسان .

ولقد رأيتُ له إخوةً يسكنون إلى اليوم الصحارى . فأيُّ  
نشاطٍ وأي جمال ، وأي نفطة وأي رشاقة . وطاردوها في الصحارى  
الإفريقية والصحارى الآسيوية على ظهور الجياد المختارة فما لحقوا  
بها . ونقف ننظر إليهم استخفافاً . فإذا اقتربوا عملت حوافرها  
في الرمل ، وأعملتها في الصخر ، فما شقوا لها غباراً .

فالخير إنما تبكي على هذه الحرية الغابرة ، والمقدرة الذاهبة ،  
وتحزن ، وحقَّ لها البكاء وحقَّتْ الأحزان . وتلك الكتابة  
البادية إنما هي احتجاجٌ صامت يقرؤه كل صاحب حق مغلوب .  
ومن أساليب احتجاجها ذلك الصوت الذي أنكرناه ،

فسميناه نهيقاً ، إنه صوت قد لا يجوز والناس على ازدحامهم في  
المدينة في ميدان كميدان الأوبرا ، ولا يكفه جائز كل الجواز على  
الخلاء في وادي كوادي عَرَبية . يُنْخِرُكَ بذلك من اعتادوا ارتياد  
الصحراء ، فتصاوتوا ليدعو بعضهم بعضاً ، فلما تقاصرت أصواتهم  
وَدُّوا لو يكون دعاؤهم نهيقاً .

إن نهيق الحمير دعاء ، لو وجد له أذنًا تَبِي .

وتلك الأذن الطويلة ، التي أصبحت علما على هذه الطائفة المسكينة : إنها أذن الصحراء ، تجمع النعم البعيد الذي تشتت فلم يجد له في الفضاء الواسع جامعا . إنك تضع كفك إلى أذنك إذا خفت الصوت لتزداد سمعا ، وتنسى أنك بهذا إنما تريد أن تطيأها ، تريد أن تستعير على غير وعي منك أذن حمار .

ونعجب للحمار ، ونفكر عليه أن يتمرغ في تراب الأرض . وما تمرغ إذا تمرغ في تراب الأرض ، وإنما في رمل الصحراء . إنها الذكرى القديمة العزيزة في أعماق الوعي البعيد تطفو حيناً بعد حين .

\*\*\*

ونفكر على الحمار صلابة رأسه ، ونفكر عناده وحِرَّانه ، ونريد منه أن يكون دائماً طيعاً مذلَّعاً ، وهل يطيع دائماً إلا الذليل ، إنه فضلٌ من عزّة ، وفضلٌ من جماع كان له يوم لم يكن يعرف البرذعة واللاجام .

ونصبوه رمزاً للغباوة ، وهل ينمو الذكاء في أرض سمدى الجوع ؟ إن الحمار « حصان الفقير » . هكذا سمعت رجالاً يصفونه ولقد صدقوا . إن الحمار وصاحبه كالأعمى يحمل مُقعداً . إنه المسكين يجرّ مسكيناً ، والبائس يقود بائساً . والبؤس يُطْفئُ اللّفتنة ويذهب بلبابة اللبيب .

على أن فطنة الحمار ، وهى أصيلة خافية ، تظهر أحياناً من تحت ستار بؤسه : ألا تراه فى رواجه أسرع منه فى غدوّه . وأنه يستجيب للهمسة فيقف ، ويستجيب لأختها فيمضى : ويذهب به الزبال بعربته على الأبواب ، فيسبقه من باب إلى باب : وهو لا يمضى عن باب حتى يحس بأن العربى أخذت نصيبها من قيامته : وفى الجبال حيث تجرّ الخيول الأحمال ، يعملون على رأس قافلتها حمّاراً ، يتخير لها الطريق الصالح .

\*\*

بقيت فلسفة الحمار ، وهى فلسفة عزيزة المنال ، لأنها فلسفة الصبر : تصور أنه على هذه الذلة وهذا الصغار ، وعلى هذا الفقر والعذاب ، تفتح نفسه للحب : يا لها سخرية بالأقدار ! قال لى حكيم ، بحكمة الحمير جدّ خبير : إن الحمير إنما تفتح نفوسها للحب حرصاً على أن تبقى منها نماذج فى الدنيا ، لتعين الإنسان على الصبر والتأسّى ، وعلى حمل بلواه .

\*\*

إنى أختم بقولة قالها قبلى فتان عظيم : إن دنيا لا ينهق فيها حمارٌ ، دنيا كئيبةٌ حزينة ، لا بطيب فيها عيش أو يتم هناء .

## علمتني الحياة

علمتني الحياة أن الحياء  
المحض غير نافع إذا لم تدعّمه  
من ورائه صفاقةٌ تظل دائماً  
مطمع .

وعلمتني الحياة أن الحُسنى  
على استعداد أن تبرز وتظهر ،  
وأن تتقدم الصفوف في زحام  
لا تكون ديدن رجل إلا

أزرت به بين  
الناس . وهي  
تُزرى به بين  
العقلاء والجهال  
على السواء ،

ولقد خلطت الناس  
صنوفاً وألواناً ، ولم أجد  
أحداً يمتاز في الحكمة  
على أحد ، بالقدر الذي  
توحى به المظاهر .  
ووجدت أفرغ الأشياء  
الطبول .

بضيع فيه الضعيف  
الغلبان . فالناس  
قلما يفهمون الحياء  
إلا ضمناً ،  
والضعف يُغرى

وتُزرى به بين خبيث النفس  
وطيها ، وتُزرى به بين  
الأشرار وبين الأبرار ، وتُزرى  
به عند من أوتي السفاهة  
ومن أوتي الحكمة . ذلك أن

بالعدوان . والحياة بعد ذلك  
صراع ، قد يلطف منه الناس  
بابتسامة ، ويثلمون حدته  
بمصانعة ، ولكنهم جميعاً  
يحملون خناجرهم في أكمامهم



الإنسان لثيمٌ بطبعه ، وما الكرم فيه إلا تطبُّعاً ، قال لي ذو  
معرفة قديمة يوماً :

« إن هؤلاء الذين ترى من صِغار ومن كبار ، ومن صاحب  
كوخ وصاحب قصر ، وصاحب غنى وصاحب فقر ، ومن  
ذی رُتَب وسلطان ، وغير ذی رُتَب وسلطان ، كل هؤلاء إذا  
أردت أن تسود فيهم ، فانظر إذاً إليهم شزراً ، وترتب بهم  
الفرص لتوسعهم سبباً وركبلاً . وقد يكرهونك ، ولكنهم  
يخافونك ، وفي الخوف إلا كبار ، ومن خاف فأكبر ، فعل فيه  
مركبُ النقص فتراجع لك وتفقر » .

وكنتم أستمع لدى معرفتي هذا في غير تصديق كبير .  
« كان ذا لسان سليط . وهالني من تلك التجربة على السنين أني  
وجدته كلما أمعن في خطته هذه ، فكرهه الناس ، تقدّم صفوفهم .  
وكما زادوه كراهةً ، زاد فيهم تقدماً ، فلما بلغ في المراتب مبلغاً  
أميناً ، عاد الكارهوه يحابُّونه ، وعاد المحاصوه يصادقونه ،  
والمتجبرون المتعجرفون ، المستأسدون المستنمرون ، عادوا ذئاباً  
وعادوا كلاباً ، يذمقون بالألسن ، ويَبصّبون بالأذنان .

ولست قصة صاحبي هذا ببدعة في البدع ، فانظر لنفسك  
أنت ، واذكر كم يلقاك في حياتك من ثقال الظل الرافعين إلى

السماء مذاقيرهم ، وكم يلقاك من خفاف الظل الخافضين إلى الأرض  
أجنحتهم ، واحسب كم تبذل لهؤلاء من احترام وكم تبذل  
لأولئك . إنك تخاف الأولين فتتجنب أو تحترم ، وتعتذر  
بأنك تدفع شرًّا ، وتودُّ الآخرين وتألفهم ، وتُعطيهم حظَّ  
الألفة من رفع الكلفة ، وهي رفع من احترام .

\* \*

وعلمتني الحياة ألا يأس مع الحياة ، وأن النهار يُعقبه ليل ،  
وأن الليل دائماً يُعقبه نهار ، فلا دوام في العيش لبياض ولا دوام  
لسواد . وما وقعتُ في ضيق إلا انتظرت فرجا . ولا جاء الفرج  
إلا توقعتُ ضيقا ، ولا حلَّ بي مرض إلا صبرتُ أنتظر الشفاء ،  
فإذا حضر الشفاء عدت أيامي على الصحة فحمدتُ الله ، وحسبتُ  
للمرض المعاد حسابا . وسواء ، في الدرس على اليقاعة ، أو في  
العمل على الشباب والرجولة ، لم أجد لليأس نفعا إلا تسوىء  
العواقب ، والفتَّ في الأعضاء . وكنتُ أرى الخير في أن أغمض  
عينني عن الغاية المتخاذلة ، وأُعمل قدمي في السير قدما في ثبات  
وانتظام ، وعلى غير قلق ، فأجدني ألحق بالقطار وقد همَّ بالقيام  
أو كاد . وكثيراً ما لحقته وتبججتُ في مجلسي فيه ، وما صفر .  
كذلك علمتني الحياة أن لا أسرف أبداً في رجاء ، وأن

لا أحلق في سماء الآمال بعيدا ، ولو شجعت البشائر وابتسمت الأيام . ذلك أن الأمل إذا طال ، كان حبله كحبل طائفة الصغار ، إذا مددت فيه طولا ، أنذر بالقطع مع الريح . وهو قد ينقطع ، حين الطائفة في زرقاء السماء ، أزهى ما تكون ألوانا ، وأكثر ما يكون ذيلها اتزاناً .

\* \*

وعلمتني الحياة صحة ذلك المثل القديم : ما حكت جلدك مثل ظفرك . وعلمتني الحياة أن الصحبة جميلة ، والصحاب أعوان ، ولكن علمتني كذلك أن الصحبة محدودة ، والعون لا يأتي أبداً جُزافاً . وأن الصحبة والعون ، أصدق ما يكونان ، وأصفي ما يكونان ، وأكثر ما يُبذلان ، بين الصبية والصبايا ، والأظفار لا تزال ناعمة ، والقلوب لا تزال طرية ، والمواطف سائدة والعقول مسودة . ولن تجد التضحية كاملة شاملة جميلة كالتضحية بين شباب . ثم تذهب عن الأظفار نعومتها ، وتذهب عن القلوب طراوتها ، وتذهب عن المواطف سيادتها ، وتخرج العقول تملك زمام الحياة ، وتظفر فيما أسمىه العواقب ، فتعلم أن البذل المتكاثر له نتيجة تُسمى الحرمان ، وأن الكرم الشديد يؤدي إلى الفقر ، وأن واجب الإنسان لنفسه أولاً . ثم لمن يعول ، ثم هو من بعد

ذلك للناس . وتثقل وطأة العيش فيدفع كلٌّ عن نفسه ، ويحتسب كلٌّ في أنانيته . وتُذكر الأنانية فيحلفون أغلظ الأيمان أنهم منها بريئون ، وهم فيما حلفوا صادقون . إنهم أبرياء منها بالإيمان ، ولكنهم غير ذلك بالأعمال . كالرجل الذي يدين لربه عقيدةً ، ولا يقيم له الفروض ولا يتقرب له بالحسنات .

\* \*

وعلمتني الحياة شيئاً من عناد ، هو عناد الفكرة ، أثبت عليها ما اقتنعتُ بها ، ولو قام الخمسة الرجال والعشرة من حول المائدة يدللون على بطلانها . وقد تُزعزعني المعارضة القوية فأكد أنهم بصيرتي ، ثم أعود إلى نفسي أقوى ما أكون إيماناً بها . ولقد خالطتُ الناس صنوفاً وألواناً ، ولقيت الصغير ولقيت الكبير ، ولقيت الشاب ولقيت الشيخ ، ولقيت الجاهل ولقيت العالم ، ولقيت ذا الجاه ومن لا جاه له ، فلم أجد أحداً يمتاز في الحكمة على أحد بالمقدار الذي توحى به المظاهر ، ووجدت أفرغ الأشياء الطبول . وتلك الأسماء الطنانة ، وتلك الشخصيات البارزة في المراتب البراقة . خَبِرْتُ القليل منها فحَمِدْتُ ، وخبرت الكثير فقلت مع ابن الرومي :

أن للحظَّ كيمياء إذا ما      من كلِّباً أحاله إنسانا

وعلمتني الحياة أن المجالس ، وهي أحسن ما تكون ، وأكفى ما تكون ، وأحفظ ما تكون لنفسها كرامة ، إذا أجازت فهي لا تُجيز الحق ، ولا تُجيز الصواب . إنما تجيز ما تراه الكثرة حقاً وما تراه صواباً ، وما كانت كثرة دائماً على حق ، وما كانت قلة دائماً على باطل ، ولكنه أسلوب لتصريف الأمور ليس منه بديل ، ولا للناس عنه تحييد . من أجل هذا لم أخرج قط من أن أقف في قلة ، ولم يُرهنى قط أن أقف في كثرة ، ففي الأولى احتمال الصواب وفي الثانية احتمال الخطأ ، وإنما الأعمال بالنيات .

وعلمتني الحياة : : : : : وعلمتني : : : : : .

## حب الأوطان

ليحى الوطن ، ولتحى مصر ، ونحن نحب الأوطان .  
شباباً ، فرجلاً ، فكهلاً ،  
فتقل عاطفته ويزيد فكره ،  
ويضعف صراخه ويقوى كلمات كفا نقولها على  
منطقه . وقد يستحى أن الصبا في صوتٍ جهير ، وفي  
يهتف مع الهاتفين ، إلا أن غير فهم كثير ، أيام  
يكون سياسياً من الأحاسيسُ هي  
صناعته الهُتاف ، وهي  
ومع هذا فهو يجد الغالبة ، وهي  
في القرارة من المتسلطة ، وأيام  
نفسه ، وفي المهجة الفكرُ منضمير  
من قلبه ، عاطفة قوية جامحة ، متخاذل ، قد زحمته العواطف ،  
كعاطفة الحب على الشباب فدفعته ، فأتزوى إلى جانب  
الجامح ، هي حبُّ وطنه ، الطريق يفسح للموكب  
وحب أهله وعشيرته : وهو المتدفق السبيل .  
إن لم يهتف للوطن بحياة ، وتمر الأيام فيصبح الصبي

ليد حب الأوطان وقفاً  
على جيل دون جيل  
ولا يبيل دون قبيل .  
وأحسب بدأ يآدم .

هُتَافًا يَشُقُّ الهَوَاءَ مَسْمُوعًا ، فهو يَهْتَفُ به في حنايا نفسه هَتَافًا تَرنَّ  
 في جنبات النفس أصداءه ، فيهِزَّ جدرانها ، ويُنال من أعصابها .  
 نعم .. إن حب الوطن ليس وقفًا على عمر دون عمر ، ولا على  
 جيل دون جيل ، ولا على قبيل دون قبيل ، وأحسَّبه بدأ مع  
 آدم . تلك الألفة التي يَألف بها القلب للكان ، ويألف العيش ،  
 ويألف من صَحِبَ من الناس . ولما كانت الألفة تزيد على  
 السنين ، فهي تزيد بتقدم العمر . فإن ذكر الشباب الوطن بما  
 قَضَى فيه من طفولة وصبا ، ذكر الكهل الوطن بما قضى فيه من  
 طفولة وصبا وشباب واكتمال ... فكان بالذِّكر أعلق ، وبه  
 أمتع ، وللوطن من أجل ذلك أحب :

وَحِبِّبْ أوطانَ الرجال إليهم      مَأْرَبُ قضاها الشبابُ ههنا لكا  
 إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمو      عهد الصبا فيها فحنُّوا لذلك

\*\*\*

والشباب قد يفتدى وطنه حبًّا في سَوْرَةٍ من سورات الشباب  
 تَحْجُبُ عنه العواقب . والشيخ قد يفتدى وطنه ، ولكن على  
 ثقة وعلى علم بالعواقب . وعلى مثل هذه الثقة ومثل هذا العلم  
 افتدى ريجليوس الشيخُ الروماني المشهور وطنه ؛ وصار مضرب  
 الأمثال في حب الأوطان ، عند رومان وغير رومان . وحاربتُ

روما قرطاجنة وغلبتها بحراً . وعادت الأخرى فغلبتها برأ . ووقع ريجليوس ، وهو قنصل روما وسيدها وقائد جيشها ، وقع أسيراً في أيدي القرطاجنيين . ثم فكروا إيساره على أن يعود إلى روما فيئزى قومه ، إما بالصلح وإما بافتدائه بعدة من أشرافهم وقعوا في أسر روما . فإن لم يكن صلح أو افتداء ، عاد إليهم أسيراً . وحلف لهم بشرفه أنه يعود . واجتمع شيوخ روما في مجلسهم يتشاورون . وقام ريجليوس فيهم يبدى رأيه . فإذا به لا يرضى للحرب وقفاً ، ولا يرضى عن افتداء نفسه بفكاك الأسرى . وإذا به يقول لهم إن صالح الوطن في غير هذا وهذا ، وإنه رجل شيخ لم تبق منه بقية ترضى ، وإنه هامة اليوم أو غد . وترددوا في الحكم فقال لهم : «علام التردد ؟ وفيم حبسكم إياي عن العودة لأختتم أيامي الطويلة بيوم للفخار كبير ، أستقبل فيه عذاباً شديداً ، ولكنه عذاب قصير ، أرقد بعده رقدة الأبد ، على الراحة والطمأنينة ؟ » .

وأقرؤوه على ما رأى . وقام يودعه أهله والصحاب ، على قلوب كسيرة وأعين دامعة . . وسار إلى موت لا شبهة فيه ، ولقى قبله من العذاب ما ظن أنه ملاقيه .



وحبُّ الوطن ككل حب ، لا يحسن به صاحبه حتى  
يتمتع ، وتمتنع أسبابه ، وتجف منابعه وتجدبس أفوايقه . كالندى  
لا يفتده الطفل كافتقاده عند فطام .

قيل لأعرابي : « أي بنيك أحب إليك ؟ » قال : « الصغير  
حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يؤوب » .  
والوطن أحب ما يكون عند الغائب حتى يؤوب . وقد بنام حبُّ  
الوطن في قلب أهله ، حتى توقظه الغربة ، فيصحو على الصراخ  
والعويل . ونعيم العيش في غيبة الوطن يهون ، وتعزُّ السلوى  
ويغلبُ الأسى :

بِمَ التعلُّ لا أهل ولا وطنُ      ولا نديم ولا كأس ولا سَكَنُ  
هكذا قال المتنبي في غير شرح من شباب . ولقد اغترب  
للمتنبي كثيراً . فأحب وطنه كثيراً . وجاء العيد ، وهو محرك  
الذكريات ، فما احتفل في غربته بعيد ، وود لو أن بينه وبينه  
الصحارى والبيد :

عيدٌ ، بأية حال عُدَّتْ يا عيد      بما مضى ، أم لأمر فيك تجديدُ  
أم الأحبة فالبيداء دونهم      فليت دونك بيداً دونها بيد

\*\*\*

وأهل المهجر الأمريكي ، ماذا صنعوا بعد أن خلفوا الأوطان ؟

تشبثوا بها ، وتشبثوا بافتها ، فكانت لهم في المهجر البعيد صحف  
بالعربية ، واجتماعات يؤكل فيها الطعام عربيا ، ويشرب  
الشراب عربيا ، ويجري الحديث عربيا صميا ، عربى اللفظ ،  
عربى الموضوع . وخلف منهم خلف لم ير الوطن العربى ،  
ولكن بقى في قلبه منه بقية شوق . دخلتُ مطعما هناك ، أنا  
وزميلي المصرى ، وجرى الحديث بيننا عربيا . وكان حامل  
الطعام بالمطعم شابا وسيا ، لاحظت أنه كان يركن إلينا طويلا  
على غير عادة . فنظرت إليه نظرة استفسار . قال :  
« يا لله استرسلا فى حديثكما . . فإن جرس هذه اللغة يذكّرنى  
بأبى الداهية . إني لا أفهم شيئا مما تقولان إلا كلمات يكفينى  
منها أنها تذكرنى بطفولتى الحبيبة » .

نعم . . لم يبق من وطنه القديم من صلة إلا طفولة قصيرة ،  
قصرتها وفاة أم عزيزة .

وسياتى من بعد هذا الخلف أخلاف ، تختلط فيها الذكريات  
وتنبهم ، ويحل جديد منها محل قديم ، وتستبدل فيها  
أوطان بأوطان .

## أصحابي الذين خابوا

الدنيا حظوظ . هذا  
ما ارتأيته من زمن بعيد ، وهو  
هو ما أراه اليوم ، من أجل  
هذا لا أحمد كل الحمد من  
ينجح في الحياة ، ولا أذم كل

العمر ويزكو ، ولكنه لا يربو  
ولا يزكو من عدم . فهو يولد  
مع الوليد ، حتى لقال العلماء  
إن الرجل يتم تكوّننه في  
عامه الأول ، وقصدوا بذلك

أنك لا تستطيع  
أن تغير الطفل  
ولا تغير أصول  
طباعه ومواهبه ،  
بعد عامه الأول .

إن الملاح قد تقلب به  
السفينة ، على الرغم من  
الجهود الشاقة ، وعلى  
الرغم من المهارة والنية  
الصادقة ، لأن الموج  
كان أعنى وأغلب

الذم من يخيب في  
الحياة . ذلك أنما ،  
حتى إذا اعتبرنا  
من ينجح في  
الحياة بناء على

ما عنده من مواهب ، واعتبرنا  
هذه المواهب ، لوجدنا أن  
المواهب من الهبة ، فهي  
أشياء تُعطى ولا تُكتسب .  
إن الموهبة شيء قد يربو على  
وسواء آمنت بهذا القول أو  
لم تؤمن ، فهو يؤكد ما نريد  
إيضاحه من أن مواهب الرجل  
منا ، ومواهب المرأة ، تولد  
أصولها مع ميلادها أو ميلاده .

ثم تأتى البيئة من بعد ذلك فتؤثر فى هذه الطباع ، فى هذه المواهب ، إما سلباً ، وإما إيجاباً . والبيئة نفسها ليست من صنع الإنسان . إن الإنسان وأشباهه من سائر الحيوان تتميز جميعها عن النبات بأن لها أرجلا ، رجلين أو أربع ، أى تتميز بالحركة ، ولكن الإنسان ، فيما يختص ببيئته ، له حركة كالسكون . إن الفرد منا يرتبط بالبيئة ارتباطاً النبات بأرضه ، وهو لا يستطيع أن يقتلع نفسه من بيئته ، ولا أن يتحرك بعيداً لأن فى ذلك تمزق جزوره ، وجفاف ماء الحياة فيه وتقطع أسبابها . وهو إلى سنـة كبيرة لا يخطر له فى بال أن يتزحزح عن البيئة إن لم تكن صالحة ، ولا يخطر له فى بال أن يتهم البيئة ، لأنه هو بعضها ، وبعض الشيء لا يثور على سائره ، ولأنه هو عبدها ، والعبد قل أن يثور على سيده .

ثم الفرص ... إن فى البيئة الواحدة ، تغدو فرص الحياة وتروح . والفرص ليست من خلق الإنسان ، ولا هى بالشئ الموقوت الذى يُعرَف له ميعاد فينتظر ، أو يُعرَف له اتجاه فيجلس الناس فى طريقه . إن الفرص سوانح ، وهى كسوانح الطير وبوارحه ، قد ترصد لها الساعة من بعد الساعة ثم لا تجيء ، وإذا هى جاءت ، لزمك إحسان الرمى لتصيبها ، وليس كل الناس له بمحسن . إن الرمى لا يحسنه فى الناس إلا القليل ، لهذا

لا ينجح في الناس النجاح الصريح الذي لاشك فيه غير القليل .  
فدون النجاح في الحياة عوائق ، هي ضروب ثلاثة ، عوائق  
من طباع ، وعوائق من بيئة ، وعوائق من فرص تأتي ثم تفلت  
وقد تتجمع فتجعل النجاح أعسر من دخول الجمة . ولكن  
كثيراً ما يُسعف الطبع وتسعف البيئة وتأتي الفرص فتقف عند  
بابك . فتصبح الموانع من النجاح دوافع إليه ، ونذر أن تجتمع  
كل هذه دفعة واحدة لرجل ، إلا رجلاً اصطفته الآلهة — كما  
زعم الإغريق — للإعزاز والتدليل .

\* \*

إن النجاح أكثر ما يُكتسب غلاباً وصراعاً . وكل رجل  
منا كاللّاح فوق سفينته ، فقد يسكن له الماء ويهب الريح على  
هواه ، ولكن الماء أكثر ما يكون مضطرباً تفشّره وتطويه  
الأمواج ، والريح أكثر ما تكون عاصفة هوجاء ، فيعمد اللّاح  
عندها إلى ما أسماه في لغة البحار المصفح والإصلاح ، فيقتبس  
من الريح ، وهي تعارضه ، نصيباً يدفعه ، يدفعه إلى حيث ما يريد  
هو لا إلى ما تريد الريح . ويصل إلى غايته أخيراً ، وبعد مشقة ،  
وبعد زمن يقصر أو يطول . وقد يطول الزمن فوق ما يطول  
العمر ، فيفنى الرجل المجاهد كما تفنى الموجة فوق سطح الماء ،  
وفي نفسه أمانة لم تقض ، وفي قلبه من أجلها حسرة . وقد تهقلب

به السفينة على الرغم من الجهود الشاقة ، وعلى الرغم من الماهرة  
والنية الصادقة ، لأن الموج كان أعنى وأغلب .

والناس لا تفهم من الأشياء إلا غاياتها ، ولا ترى من هذه  
المعارك الدائمة الدامية إلا خواتيمها ، وهم في سباق الحياة ، كما هم  
في سباق القوارب ، يتكوكبون عند الهدف الأخير بصفقون  
للرجل الذي وصل أولَ واصل بأول قارب . أما سائر القوارب  
فتمتسى . أو هي لا تمتسى ، لأنها لم تذكر قط ، وإن تذكر أبداً .  
والناس من يبقَ خيراً قائلون له

ما يشتهي ولأتم الخطيئ الممبـل

\*\*\*

وأنظر إلى إخواني وأصحابي ، ولزملاء الذين نجحوا في الحياة ،  
والذين خابوا ، فأجد أثر المولد أحياناً ، وأحياناً أثر البيئة ،  
وأحياناً أثر الفرص ، وأجد هذه الآثار تعمل عملها ، منفردة  
أو مجتمعة ، كسباً أو خسارة .

فصاحب كانت تبشر أكثر البشائر بأنه خُلق لينجح .  
ذكاء مُفرط ، ومولد فوق فراش من حرير ، ومال للتربية وفير .  
ولكنه لم ينجح ، أو لم يَأْتِ أقرب إلى الصواب إذا قلت  
لأنه لم ينجح الفجاح الذي أملوه . والسبب في ذلك البيئة . فالبيئة

كانت بيثة راحة . كانت بيثة الطعام المختار ، واللباس الأنيق ، والسيارة الفخمة ، فلم يكن له على العمل من دوافع إلا الرغبة في أن يكون بالتعليم وجيها من الوجهاء . وهو دافع أضف من قوته أن صاحبي وُلِدَ وهو نصف وجيه . وبعد ختام التعليم الثانوي تهيأت له الفرصة ليختار مدرسته العالية ، فاختار أبعد المهن عن الرفاهية وأقلها شبها بكسل النعمة . اختار الهندسة . وبعد لأي وصل إلى غاية المطاف منها . ولكن ماذا صنع في الحياة من بعد ذلك ؟ لا شيء . خول في الذكر ، وخول في البيت ، وذكا معرطاً تثلم على الأيام ، كسكين الفولاذ الذي صدئ من طول تركه .

وصاحب آخر ، وإن أسميه ، ولو أنى سميته لعرفه الكثير . فهذا على نقيض ذلك . وُلِدَ على السرير المتواضع ، ونشأ على العيش الأخشن ، ولم تهبه الطبيعة ذكاء زائداً — ونقول هذا تأديبا — ولكنها وهبته الصحة ، وهبته الجَلَدَ على العمل ، وكلاهما صفتان من صفات أبيه التاجر . وعرف أبوه بالتجربة أن الحياة بها فرص تُنتهز فطَفِقَ ينتهزها لولده حتى كان تعليمه كله بالجمان . وذهب إلى أوروبا أيضا بالجمان . فكان له النجاح الذي يحسده عليه كل الناس ، وصار لي المثل الناطق والشاهد

الذى لا يكذب ، بأن الذكاء ليس لازماً للنجاح لزوم العمل المتواصل . بل كدت أومن بأن الغباء على الجِدِّ أنجح للمرء من ذكاء يصحبه تكاسل وتخاذل وارتخاء .

\*\*\*

ومصاحب ثالث ، تهيأت له أسباب النجاح ولكنه خاب . اختتم دراسته بنجاح ، وحلّ من جدول النجاح سطورَه الأولى . وكان فطناً ، وذا لسان . وكان للناس عليه إقبال . ولكن أضرَّ به أن أباه كان فقيهاً ، فوَرِث عنه البصرَ النظريَّ ، وورث معه التردّد الذي يَرى دائماً أن في الأمر قولين . فهو يفكر فيحسن التفكير . ويُخَرِّج فيحسن التخريج . حتى إذا جاء وقت العمل تحنّب ، فلم يستطع أن يصنّع بالذي يرى . والفكرة عنده تدور في رأسه ثم تدور ، يحاورها وتحاورة ، وبدوارها وتداوره ، حتى إذا ظن أنه فاعل ، تمهل يؤدي أعمالاً تافهة يُمهّد بها للذي اعتمزمه ، أو هو هكذا ظن ، وما هي إلا مهرباً أو مهارب مما ظن أنه فاعله . وهو قد يتشجع على العمل أخيراً ، ولكن بعد أن يكون قد أجهده الفكر فأفرغ جهده ، فلم تبق منه بقيّةٌ تُعين على عمل . كالرجل الذي أجهده السهر ، فما أصبح الصباحُ سعى على ساقٍ متخاذلة لا تقوى على السير ، وعينٍ متثاقلة لا تكاد تفتتح على هدى .



وصاحب رابع نجح نجاحا باهرا إلى أن صار ابن خمسة وعشرين . وأنظر إليه اليوم وقد فات الخمسين أو كاد ، فلا أستطيع أن أقول إنه مجح في الحياة . إنه يعيش عيشة طيبة هادئة كعيشة بعض الناس ، ولكن أين هي مما أملناه ودلت عليه مخائله ؟ وأدرس أمره فأعزو تلك الخيبة إلى أنه لم يكن له غاية في الحياة . وكيف يكون النجاح بدون غاية ؟ بل حتى كيف تكون الخيبة بدون غاية ؟

ذكرني هذا بالفتاة « أليس » ، في الكتاب العالمى الشهير « أليس في بلاد العجائب » ، جاء فيه أن « أليس » وقفت عند مفترق الطرق ولا تدري أى طريق تأخذ . وجاءت قطعة تسمى . فنادتها الفتاة وسألتها : أى هذه الطرق آخذ ؟ قالت القطعة : هذا يتوقف على أية غاية تقصدين . قالت الفتاة : ليس لى غاية . فقالت القطعة : إذن فخذى هذا الطريق أو هذا أو هذا .

ثم صاحب خامس وسادس وسابع . . . . . قليل نجح . وتقدم ، وكثير خاب وتأخر ، واتصلت أسباب النجاح فيهم . والخيبة بإرث من مواهب قد يرخص وقد يغلو ، وبهيئة قد تصلح . وقد تفسد ، وبفرض قد تحضر وقد تغيب ، ثم يتيقظ المرء لهذه المؤثرات جميعا ، يستغلها إن أعانت ، ويرتفع فوقها إن أعاق ، فيجاهد ويصابر ، والمقابلة دائما للصابرين والمجاهدين .

## قِطَّةُ الْجَارَةِ

قِطَّنَا الذِّكْرُ أَوْلَدَ قِطَّةً      بِأَثْدَانِهَا . وَإِذَا الْقِطَّةُ تَجَدُّ فِي  
جَارَتِنَا قِطَطًا . وَلَمْ يَذْرُ الْخَبِيثُ      هَذِهِ الْأَثْدَاءَ حَلَبًا لَمْ تَذْرُ كَيْفَ  
مَا صَنَعَ ، وَلَمْ تَذْرُ صَاحِبَهُ .      جَاءَ . وَإِذَا الْخِلَائِقُ الصَّغِيرَةُ  
وَلَمْ يَذْرُ فِي خَلَدِهِ ، أَوْ خِلَدِهَا ،      تَرَبُّو وَتَمُ ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ

سَاعِدُهَا تَفَرَّقَتْ  
فِي الْأَرْضِ ، فَلَمْ  
تَذْرُ مَا أَثْنَاهَا ، وَمَا  
كَانَتْ دَرَّتْ  
مَا أَبَوَاهَا . وَلَمْ تَذْرُ  
مَا أَخْتَاهَا وَمَا

إِنَّ الَّذِي أَرِيدَهُ مِنْكَ ، أَنْ  
تَفْعَلَ مَا تَفْعَلُ الْقِطَطُ ،  
تَذَرُهَا النَّاسُ بِالْأَحْجَارِ ،  
وَلَكِنَّهَا قَامَتْ عَلَى الْبَيْتِ  
الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ الْحَجَرُ ،  
لَأَنَّهَا تَعَلَّمَتْ بِالتَّجَرُّبَةِ أَنَّ  
الْبَيْوتَ كُلَّهَا بِهَا مَحْصُولُ  
مِنَ الْحَجَرِ وَافِرُ

مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفَعْلَةِ  
الشَّعَاءُ ، مَا يَدُورُ  
فِي عَقْلِ الرَّجُلِ  
وَالْمَرْأَةِ ، أَنَّ مِنْ  
بَعْدِ هَذَا الْإِقَامِ  
الْوَلَدُ . وَعَمِلْتُ

أَخُوهَا . وَاسْتَقْبَلَتْ الْحَيَاةُ ،  
لَا عَمَّ لَهَا وَلَا خَالُ . كُلَّ إِرْثِهَا ،  
إِرْثُ جَمِيعِ الْقِطَطِ ، مِخْلَبُ  
وَنَابُ . وَكُلُّ مَدْرَسَتِهَا ، مَدْرَسَةُ  
الطَّبِيعَةِ ، يَعْلَمُهَا أَذْيُ الْكِلَابِ

يَدُ اللَّهِ مَا تَعْمَلُ فِي ظِلَالِ الْأَرْحَامِ  
جَمِيعًا ، فَشَكَلَتْ أَبْدَعَ تَشْكِيلٍ  
وَسَوَتْ أَحْسَنَ تَسْوِيَةٍ ، فَإِذَا  
الْقِطَّةُ تَرَى حَوْلَهَا خِلَائِقَ  
صَغِيرَةً ، تَلُوذُ ، عَلَى عَمَاهَا ،

كيف تهرب ، ويؤلمها مذاقُ الخير عند أهل الخير كيف تتعجب .  
وتتبعُ هذه القططُ الصغيرة في الحياة حيناً ، وقد جرت  
في سوقها فريدةً وحيدة : ووجدتُ لها ، من ذكروا أنى ، حظوظاً  
متفاوتة ، ووجدتُ بينها البائسَ والناغم ، والجائعَ والطاعم ،  
وما له مأوى وما لا مأوى له : ووجدتُ منها ما يستقبله الناس ،  
على قُربٍ ، بمرِّ الأيدي الناعمة على شعره الوثير ، ووجدتُ منها  
ما يستقبله الناس على بعد ، بقذف الحجر ، ويوذُّ المقدوف  
بالحجر أن يتقرب ، وأن يتودد ، فيخطي سبيلاً .

فقلت في نفسي : ما أشق العيش صنعة !

إن القطط لا تزرع ولا تحصد ، وهي لا تعرف الصناعة  
وما التجارة ، ولا تعرف ما التوظف وما الترقى ، والصيد الذي  
رسمته الطبيعة ليكون سبيلَ رزقها الأوحده ، باعد بينها وبينه  
ما باعد ما بينها وبين البرارى والصحراء ، موطنها الأول .  
فأصبح اعتمادها في الرزق على شيء واحد : على حُسن الملائق  
بالناس . على حسن العلاقة بينها وبين طبّاخ البيت ، وحسن  
العلاقة بينها وبين ربّة الدار ، ربّة الطباخ والمطبخ . وحسن  
العلاقة بينها وبين أطفال البيت ، لاسيّما بناته ، وهذه أمتنُ  
الملائق ، وأوثقُ العرى .

قال صاحبي : فما العلاقة بين القطط وما نحن فيه ،  
وما أشكو منه ؟

قلت : العلاقة حُسن العلائق بالذاس . أنت طبيعاً أحسن  
حالا من القِط من حيث تبدأ الحياة . فأنت تبدؤها ولك البيت  
والأهل ، ولك البطانة التي تأخذ بيدك ، وتأخذ برجلك ، وتعلمك  
أين تسير وكيف تسلك . وأنت تستطيع أن تعمل وأن تُنتج ،  
وأن تكون طبيباً ماهراً ، أو مهندساً ماهراً ، أو عاملاً ماهراً .  
ولكنك عائد آخر الأمر لتكون كالقطط ، عمادك على الذاس .  
إنك لا تستطيع أن تكون هذا ، أو بعض هذا ، إذا أنت لم تكن  
قادراً على أن تجعل ما بيدك وبين الذاس عامراً ، وأن تجعله  
موصولاً ، وتجمعه صافياً . أو إذا هو تعكر ، أن تحتمل العكر ،  
وتحتمل القدر ، وتحتمل الأذى . إنك يا صاحبي ذو حس مرهف ،  
تُسَيِّئُكَ الكلمة الغابية ، والفطرة الجافية ، والفظة الكراء ،  
فتُجفل منها وتُعطى ظهرك للدنيا . إن الذي أريده منك أن تفعل  
ما تفعل القطط ، تقذفها الذاس بالأحجار ولكنها تثبت على  
البيت الذي خرج منه الحجر ، لأنها تعلمت بالتجربة أن البيوت  
كلها بها محصول من الحجر وافر . سوف لا يُغنيك أن تتحول  
عما أنت فيه ، فإنك حينما تحولت ، ستجد الأرض هي الأرض ،

والسماء هي السماء ، والناس هم الناس .

إننا ننكر من الطبيعة الجامدة أشياء . ننكر منها الحر في الصيف . وننكر منها البرد في الشتاء . نشكو السماء إذا هي على البلال أمطرت ، ونشكوها إذا هي على الجفاف أقلعت ، ونضيق بالرياح إذا الرياح بالرمال سَفَت . ومع هذا نصبر على أسواء هذه الطبيعة الجامدة ، وعلى أجوائها . فما بالنا لا نصبر على أسواء الطبيعة الحيّة ، وأجوائها ، أجواء الناس ؟

إن في الناس غِلَظًا ، وفي الناس غرورًا ، وفي الناس جفاء ، وفي الناس ثِقَلًا ، وفي الناس خُبْنًا ، وفي الناس بداءة ، وفي الناس كيدًا ، وفي الناس مَوْجِدَةً ، وإن في الناس كثيرًا من صفات لا حصر لعددتها ، امتلأت بها كتب اللغة ، وفسرتها القواميس من يوم أن عُرِفَت الكتب ، وعُرِفَت القواميس ، وعُرِفَ الكلام . لا شك في هذا . والناس في لقاء هذا الأمر رجالان : رجلٌ يضيق بما يَلْقَى من عَنَتٍ ، فيتجنب ، ويتعزل ، ويرضى من العيش بأن يعيش على هامش العيش . وقد يعزف كل العزوف ، فيترقب ، ويدخل الدير . ورجلٌ يرى أنه ، مادام قد وُلِدَ في الناس ، فلا مفرّ له من خوض غمار الناس إلى الغاية المرسومة ، لا يبالي ما يَلْقَى في الطريق من أقداره وأحواله ، وما قد

تَدْمِي مِنْهُ قَدَمَاهُ ، وَمَا قَدْ تَتَمَزَّقُ بِهِ ثِيَابُهُ ، وَلَا يُعَدُّ هَذَا كُلَّهُ  
إِلَّا كَبَعْضِ وَعَثَاءِ السَّفَرِ وَتَرَابِهِ .

قال صاحبي : إن التراب يغسله بالماء .

قلت : والإسماءات يغسلها النسيان أو التناسي . هذا إذا  
أنت لم تُعْطِ الناس فوق ما يجب لهم من خطر ، وتُكبر أمورهم  
فوق ما يستحق لها من إكبار .

قالوا إن الدين المعاملة ، وأقول إن العيش المعاملة . والمعاملة  
بين الناس شاقَّةٌ حتى على النِّيَّةِ الحسنة . إنه التوفيق بين شيئين  
قلما أن يكونا خُلِقَا لِيَتَّفَقَا ، والتنسيق بين أمرين قلما دُبِّرَا  
لِيَتَّسِقَا ، والتعشيق بين تُرْسَيْنِ من فولوذ في مَكِينَةِ الحياة ، قلما  
أن يكونا صُبَّا لِيَتَعَشَّقَا .

إني لا أسمع بعروسين قد دخلا الحياة ليمارسا أمور العيش  
معا حتى يجود لهما قلبي بالكثير من الرحمة ، وأدعو لهما أحرَّ  
الدعاء ، أن يكون بينهما توفيقٌ وتنسيقٌ وتعشيقٌ . فَرَدَّانِ  
غريبان ، غريبان في النشأة ، غريبان في المشرب ، غريبان في  
المزاج والذائق والنظرة ، غريبان فيما يُحِبَّان ويكرهان ، يُفَرِّضُ  
عليهما أن يجتمعا لِيَتَّفَقَا ، ولتَزُولَ من بينهما للفروق .  
ثم يقال لقد وفق الله .

لأنها معجزة لا بد أن يُقَرَّنَ بها اسمُ الله .

## دفاع عن القديم

خاف صاحبي أن يكتب في « الدفاع عن القديم » ،  
 فيقولون هذا أمسٌ وهذا غدٌ ، وهذا ماضٍ وهذا  
 خشيّة أن يقال رجعتُ ذو مستقبلي ، وهذا قديمٌ وهذا  
 رأي عتيق : وقالوا اكتب مستحدث .

أنت فلست في ذلك بمتهم . فقلت  
 أي والله ، سوف أكتب فلا أقول  
 إلا حقاً :

إن الشيء القديم قد  
 يحسن ، ولا يستطيع  
 فوات الزمن أن يغير من  
 حسنه . والشيء الحديث  
 قد يسوء ، ولا تستطيع  
 حدائمه أن تقلل من  
 سوءه . وأكثر أصول  
 الحياة ثابت ، لا يتغير  
 مع الزمان .

معنى تبث في الأفئدة الخوف  
 والرجاء ، وتبث فيها الكراهة  
 والحب ، فنحن نخاف الغد  
 أو نرجوه ، ونحب الأمس  
 أو نكرهه ، ونعيش في اليوم ،  
 إني لأعجب لهذه الشمس  
 وهذا القمر وهذه النجوم ،  
 إذ تشرق ثم تغرب ، ثم  
 تشرق ثم تغرب ، فنسبب  
 للناس كل هذا العنت ،

في الحاضر ، ولكن قل أن نعيش فيه . بعضنا يعيش اليوم ،  
في أمسه ، ترحمنا وذكرى ، وبعضنا يعيش اليوم في غده ،  
تطلماً وأملاً .

إن الزمان جلب على الناس الممّ ، وجلب القلق ، وجلب  
الريبة ، فأورث النفوس الغشيان ، وأورث القلوب الخفقان .  
إن الزمان فسكرة من خلق الإنسان ، وكثيراً ما ودّ خالق  
أن يحطّم خلقه .

\* \*

ومما جرّ الزمان على الناس من أعذات ، معنى الجِدّة والقدم ،  
والمقارنة التي لا تهدأ أبداً بين عصر يُستقبل وعصر يُستدبر .  
وقد قال الناس كثيراً في معنى الجِدّة ، ودافعوا عن الحداثة  
حتى اختل الميزان فرجح ، وأنّ للقدم أن يتحدّث ، ويُلقي في  
كفته بأثقاله ليعتدل المئاتق ويستقيم الميزان .  
فأول ما يقال في القدم أن الله قديم ، وأن الكون قديم ،  
وأجرامه قديمة ، وأن أمنا الأرض قديمة ، وأن النبات والتنبّت  
على ظهرها قديم ، وأن ديب الحياة من فوقها قديم . وأن المضغ  
قديم ، والمضم قديم ، والنسل قديم ، وبذورنا الأولى مُوغلة في  
القدم حتى ما نعرف لها أولاً . وأن العقل القديم هو الذي ابتدع .



البيت الذى يُبنى ، والمِلاط الذى يُمسك أحجاره ، وابتدع  
 الملابس سكناً يُلبس ثم يُخلع ، وابتدع السكين ليقطع ، وابتدع  
 المقص ليجز ، وابتدع المنشار الذى يأكل من الخشب ويأكل  
 من الحجر ويأكل من الحديد . وابتدع العجلة وهى عماد كل  
 حركة ومدار كل صناعة . وابتدع السفينة قلعها وسكنائها .

والفكر القديم هو الذى ابتدع هذا الورق ، وابتدع القلم ،  
 وابتدع الأحرف وابتدع الكلمات ، وابتدع الحديث ، وابتدع  
 النثر والشعر .

والشعر القديم له الجرس الحبيب والديباجة المتينة والمعنى  
 الحلو ، وليس له مذاق البول تبوله الأبقار .

والأشربة أحسنها قديماً ، والخمر أجودها العتيق .

عُتِّقْتُ حتى لو اتصلت بلسانٍ ناطقٍ وفمٍ  
 لاخْتَبْتُ فى القوم مائلاً ثم قصت قصّة الأم

ومن الأطعمة ما يجود على التمتع ، ومن ذلك الجبن  
 والفسيخ . والبصل الطازج ، أشهى منه ما يمتع فى الخل .  
 والخضر طيب على التليح والتمتع .

والناس تفخر فتنسب دائماً إلى الماضي ، فيقولون فعلنا قديماً ، وفعل أجدادنا ، ونحن أبناء الفراعنة الشداد ، والعرب الأجداد ، فلا بد أنهم كانوا على قدمهم ، من الحمد بحيث يكونون أهلاً للفخر .

والحب قد يجيء من بعد حب ، يجيء من بعده الحب ، ومع هذا بطل يتعلق القلب من هذه بأقدمها ، ومن الأحباب بمن يقع في كتاب الذكريات في الصفحة الأولى :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يسكنه الفتي

وحينه أبداً لأول منزل

والمعلم الأول أكبر أثر في النفس وأثبت صورة في الخيال ، فمن يأتون من بعده ممن هم أجده على الزمان .

والوفاء قديم ، والكرم قديم ، وكل خلق كريم قديم ، أو بذلك تجري الشائعة ، وكثير من الشائعات صواب . وفي الوفاء يقول الناس : من فات قديمه تاه . والقديم هنا ليس فقط الصديق القديم ، ولكن الأم وهي قديمة ، والأب وهو قديم ،

وعلائقُ القِدَمِ جميعها ، فهي روابط تربط صاحبها بالأرض ،  
 كما تربط الأجيالُ السفنَ فتحفظها من الرياح والهوج .  
 والموسيقى أفعلاها في النفس أقدمها . وأوربا تعيش بالروح  
 على موسيقى أسمتها الكلاسيك ، أى تلك التى اكتسبت  
 الحياة على رغم الزمان ، وبرأها وخلدها كثر الجديدين .  
 والفن قديم ، الفن فى الحجر ، والفن على القماش . لقد  
 أحسن للقدماء فيهما فما كادوا أن يُبقوا للأخلاف مزيداً :



والقديم يعطى الحديث معناه ، ويعطيه الكثير من مبناه ،  
 فلو أن الرجل متنا خلق من غير أمس ، لمضى بحكم الطبع يتساءل  
 عن أمسه كيف كان ، ويتساءل عن أحداثه . والتاريخ :  
 ما اهتمام الناس بالتاريخ يحفظون كتبه ، وهى مجلدات ضخمة  
 عديدة ؟ ثم هم لا يكتبون بالكلمة المكتوبة فيحفرون الأرض  
 يبحثون وينقبون عن أسطرٍ أخرى كتبها الزمان فى الحجر ،  
 وفى الحُفَر ، تزيد الحاضرين من أهل الأرض بالذاهبين علما .  
 ونحن ، الحاضرين اليوم من أهل الأرض ، لا نفهم معنى  
 الحياة إلا من التجربة التى قاساها الغابرون من أهلها . فالحياة  
 قديمة ، والفناء قديمٌ ، وهما يتعاوران أهل الأرض حداثتهم

والأقدمين . ومن القديم يفهم ويعلم المستحدث :

في الذاهبين الأوليـن من القرون لنا بصائر  
لما رأيتُ موارداً للعوت ليس لها مصادر  
ورأيتُ قومي نحوها يعضي الأصغرُ والأكابر  
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيين غابر  
أيقنتُ أني لا محـالـة حيث صار القوم صائر

هذا قس بن ساعدة ، وهو رجل قديم ، عاش منذ ثلاثة  
عشر قرناً ، وتعلم ممن هم أشد منه قدماً . وشعره قديم فيه حلاوة  
القدم . وفيه المنطق البسيط ، منطق القدم .

\*\*\*

أما بعد ، فقد قلت في القدم كل شيء ، إلا الشيء الذي  
لعل القارئ ينتظره ، ذلك الجانب الذي جرى العرف فيه بالربط  
بين القدم والرجعية ، وبين الجِدَّة والتقدّم . ولقد جانبْتُ ذلك  
الرباط ، لأنه رباط برغم العرف مقطوع . إنه رباط غير مقدّس ،  
لا يباركه فكر ولا هو يقوم عليه منطق .

إن الشيء القديم قد يَحْسُن ، ولا يستطيع فوات زمان أن  
يغير من حسنه . والشيء الحديث قد يَسُوء ولا تستطيع حدائثه

أن تقلل من سُوته . وأكثر أصول الحياة ثابت ، لا يتغير مع الزمان . لبُّ الحياة ثابتٌ على تتابع القرون ، وإنما الذي يتغير قشرُ الحياة ، ومظاهرها وأشكالها . فالحب في صميمه ثابت ، والفضيلة في صميمها ثابتة ، والحسن والقبیح في جواهرهما ثابتان ثبوت الجبال ، وهما كالجبال لا يَطلبُ منهما أحدٌ أن يتغيرا بتغير الدهر فيتجددا . وقد تختلف الملابس ، فهذا في قميص ، وهذا في جبة ، وهذا في بذلة ، وعلى رأس هذا عصابة ، وعلى رأس هذا عمامة ، وعلى هذا قبعة ، ولكن لو عددت أعضائهم الظاهرة والخفية لوجدتها واحدة ، ولو فتشت بواطن القلوب ونوازعها لوجدتها واحدة ، ولو بحثت في خبايا أنفسهم عن مصادر الخير ومضابطه ، ومصادر الشر ومضابطه ، لوجدتها في كلها واحدة .

والعمامة ، وهي شارة القدم ، قد يمشي تحتها جسمٌ يتضمن قلباً تتأجج فيه نار الثورة على كل حاضر ، لا لأنه حاضر ، ولا لأنه قديم أو أنه جديد ، ولكن لأنه غير صالح ، وكان غير صالح وسوف يكون . والقبعة ، وهي شارة الحدائث ، قد يمشي

تحتها جسم يتضمن قلباً أبدياً ما يكون ، وأرضي بالحياة وبال حاضر ،  
على ما به من سوء .

\* \*

بقي أن في الناس عادات ، في مأكل أو مشرب أو ملبس  
أو مسكن ، وعادات في سلوك وآداب ، وعادات في اللغة وأسايلها ،  
وعادات في الفكر وأنماطه . وصاحب العادة به احتفاظ بها لأنه  
تعودها ، ولأنها عادة فهي بحكم الطبع تعود . تجد ذلك في  
جبلّة الناس . وهي لم تُخلق عبثاً . إن الأشياء دائماً في تغير وتطور .  
والتطور قد يكون فاجئاً فيؤذي ، كما نزل جبلاً ، يتعجّل نزوله ،  
فيفقد السيطرة على رجليه فيهبطه تدهوراً . وكان جديراً بتقديمه ،  
أول الأمر ، أن يكون بهما أثقال تهدي من خطوها وتقتصر .  
فهذه هي المحافظة التي تكون في بعض الناس . وهي في الحياة  
تعمل عملها ، فكأنما هي قانون من قوانين الطبيعة . إن الحياة  
شدّة وجذب ، وبسط وقبض ، وما أحبّ عاقل أن تكون الحياة  
شداً ولا جذبا ، أو بسطا ولا قبضا .

إني أغرم بالجدة والتجدد ، ولكني ، بمعناهما هذا الخاطئ ،  
الذي يؤدّ به صاحب الجديد أن أفهم منه أنه الإصلاح دائماً ،

أَجْفَلُ أَشَدَّ الإِجْفَالِ مِنْ جَمَاعَةِ مُتَجَدِّدَةٍ ، تَقْضِي فِي أَمْرِ خَطِيرٍ ،  
لَا يَكُونُ بَيْنَهَا رَجُلٌ مِمَّا يَثْقُلُ بِهِ الْفِكْرُ إِلَى الْوَرَاءِ ، فَلَا تَعْتَرِيهِمْ  
عِنْدَ الْبَتِّ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَانَةٌ .



وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يُفْهَمَنِي أَنَّ التَّجَدُّدَ فِي التَّمَرُّدِ ،  
بِاحْتِقَارِ رَأْيِ الْأَبِّ ، وَاسْتِخْفَافِ بِحْدَانِ الْأُمِّ ، أَوْ هَوًى فِي التَّحَرُّرِ  
بِالْقَصِّ فِي الصَّلَاتِ ، بَيْنَ الْكَؤُوسِ وَالْقُبُلَاتِ ، أَوْ بِصُورِ شَيْءٍ  
مِنْ هَذِهِ السَّخَافَاتِ ، فَهَؤُلَاءِ ، لِي عَلَى اللَّهِ رَجَاءٌ فِيهِمْ ، أَنْ يَزِيدَ  
أَقْفِيَّتَهُمْ عَرْضًا ، وَيَزِيدَهَا شَجَاً ، حَتَّى تَمْتَلِي كُفِّيُّ بِهَا عِنْدَ  
الصَّنْعِ ، وَيَكُونُ لَهَا رَيْنٌ يُسْمَعُ فِي الْآفَاقِ .

## بادلوهم ، إيماناً بإيمان

أنت جالس في منزلك      بحركة أجسام ، بل حركة  
وبين كتبك ، وقد مضى      أفكار ، مصدرها هذا الرأس  
أكثر الليل . أهلك يغطّون      القليل الذي هو رأسك . ومع  
في النوم ، وكل ما حولك من      كثرة الحركة في رأسك هذا  
حجرات في سواد ، وكذلك      القليل ، فهو ، كجسمك الذي

هو بعضه ، قد  
اشترك ، من  
حيث أنه مادة  
وجسم ، فيما خيم  
على السواد

إن الشاب الذي زل في  
الطريق ، ويتمرّغ بعد  
بوحل الأرض ، تنهض به  
يد مصافحة تمتدّ إليه  
رفيقة معينة .

ماحول بيتك من  
بيوت ، وماحول  
شارعك من  
شوارع ، إلا  
حجرة مكتبك

هذه الواحدة ، فهي الوحيدة  
التي يَشِعُّ منها الضياء شديداً  
في الظلام ، وهي الوحيدة  
التي تجري فيها الحركة في هذا  
السكون السائد . وهي ليست  
والأجسام التي حوله من  
سكوت وسكون . وإنك  
لتقرأ في كتابك ، وتستمع  
إلى كاتبه وهو يحدثك ،  
ولكن بدون صوت . وقد



تَسأل ، وقد يجيب ، ولا يضطرب لسؤالك وجوابه من حوله شيء . حتى هواء الحجرة صامتٌ ساكن ، لا يحركه غير أنفاسك الدافئة المادئة المطمئنة . على أنه لو كان تحرك من الحجرة هوائها ، وما هو أثقل من هوائها ، ما أحسستَ بتحركه ، لأنك من فكرك في وادٍ سحيق ، أو جُبٍ عميق .

وبغثة ، وعلى الرغم من غيبوبتك البالغة ، ترفع عينيك فإذا رجلٌ أمامك ، قد حجب النورَ فرمى إليك بظلاله ، ولا هذا ما استيقظتَ مما أنت فيه . وتأمل الرجل ، وقد تحفّزت كل عضلة فيك لتهم إليه ، فإذا بك ترى مسدساً قد سُدَّ إلى قلبك ، ويوشك أن ينطلق .

ماذا تقول ؟ ماذا تفعل ؟ هل تسأل الرجل ماذا يريد ؟ أهو سارق ؟ أهو قاتل ؟ أم هو سارق وقاتل معاً ؟ وهل يأمر بقطع ؟ وهل يطلب فتعطى ؟ أم تقاوم ؟ أم تخاتل حتى تسنح فرصة للمقاومة ؟ أشياء كثيرة تدور في خاطرك في تقابع غريب ، ولكن لا بد لها من جواب سريع ، وحاسمٍ معاً .

\*\*\*

والآن أدعك تفكر فيما تصنع ، في موقف كهذا . وأحكى لك ما صنع غيرك في مثل هذا الموقف ، مما وعث

الذاكرة .

إنه رجلٌ نابهُ من كُتّاب الغرب ، جمع إلى القلم الثراء ،  
 قام ليلةً على مثل ما وصفنا ، ولكنه لم يكن يقرأ . بل كان ،  
 في الهزيع الأخير من الليل ، يكتب . واستغرق في كتابته استغراقاً .  
 ودخل عليه اللصُّ شاهراً آلة الموت . ورفع الكاتب بصره إليه  
 ثم غَضّه ، واستمرَّ يكتب وهو يصيح به ، اذهب عني : إني  
 مشغول . عُدَّ غداً .

ذُهِل اللصُّ ، وكأنه لم يَدْرِ ما يصنع ، فضى .  
 ولم يعد غداً .

وموقف آخرٌ مما وَعَت الحافظة .

إنه موظفٌ كبير في وزارة الداخلية ، وزارة الشرطة ، يسكن  
 الجيزة . وسهر ليلة في عمله ، في مكتبه . وخرج ، فساق في  
 تلك الليلة سيارته بيده . وما اقترب من بيته حتى شاقهُ سكونُ  
 الليل ، وأعجبه البدرُ وقد توسط السماء ، ففألت له رغبةٌ طارئة كالتي  
 تدال الكثيرين من رجال الأمن ، وتأتى كل مخاسر ، أن يخرج  
 عن عادته فلا يذهب إلى داره ، وإنما يخرج إلى طريق الهرم ،  
 يستمتع بهذا الضياء الخافت الذي يتنزل من السماء على الأرض ،  
 شاملاً في تلك الليلة كاملاً ، فيكشف عن خضرة الأرض الفسيحة

ولا يكاد ، ويرمى بظلال الشجر سوداً على البياض الأغبر  
الذى غمر الحقول .

وركن بسيارته إلى جانب الطريق ، وأخذ يتأمل المخروط  
الهرمي من بعيد ، وفي يده سيجارة يُعقّر بها تغفير الخلق . وقد  
خلا قلبه وطابت نفسه ، وتهيات لكل عملٍ للخير كريم .  
وبغمة ، وهو غارق في حلمه الهادي اللطيف ، تدّخل إليه  
من نافذة سيارته المفتوحة قوة سلاح قاتل ، ومن وراء السلاح  
شابٌّ يتهدد .

فزع الرجل الطيب ، لاشك في هذا . وفكر أول ما فكر  
في أمرٍ يحفظه . إن بها عشرة جنيهات أو نحوها . فليست لها  
إذن لهذا الشاب ويفتد بها نفسه . ولكن من يدرية أنه جاء  
سارقاً . لعله جاء قاتلاً . وإذن لا بد من سؤاله . وسأل :  
— قل لي ، ما الذي حدا بك أن تفعل هذا ؟

وبعد تردد جاءه الجواب :

— أنا جوعان ، ولا عمل لي ، وأطلب العمل فلا أجده .  
اطمأن رجل الأمن إلى الحافز ، إنه المال ، ولا شيء غير  
المال . قال له إذن هتني ، وهدأت ضربات قلبه ببعض الشيء .  
ونظر إلى الشاب ، فوجد في فمه بعض اختلاج ، إن هذا الشاب

لم يعمود الإجرام إنه في السكار جديد. وأغراه هذا بوصول الحديث :

— هب أنى أجد لك عملاً . أو هب أنك تبدأ عملاً

مستقلاً أعينك عليه ببعض مال ، فماذا أنت صانع ؟

فنظر الشاب إلى صاحبه أول الأمر في ريبة . قال :

— أصادقُ أنت فيما تقول ؟

— نعم وكلّ الصدق .

عندئذ طوى الشاب سلاحه ، وأخرج الموظف الكبير من

محفظة بطاقته ، وجنيهين ، وأعطاهما للشاب ، وسأله أن يأتيه

بعد يومين في مقر عمله فسيكون عنده له عمل حاضر .

وأوقد الشاب عود كبريت ليقرأ . وقرأ . فما علم أنه

موظف في وزارة الداخلية ، وزارة الأمن ، حتى عاد يتفحصه

من جديد ، ثم قال :

— في الأمر خُدعة !

— لا وشرفي .

وسكت الشاب ولم ينطق بكلمة .

ومضى الموظف بسيارته .

وفي الغد اتصل الموظف الكبير بصديق له ، مدير لإحدى

الشركات . وقص عليه القصة . وطلب إليه أن يجد للشاب عملاً .

فضحك الصديق . وقال إنه سيهيئ العمل ، وأنه سوف ينتظر مجيء العامل ، وأنه ان يجيء . وكيف يجيء مُعتدٍ بسلاحه ليلقى ضحيته من بعد خلاصها وخلاصه . كيف يجيء تلك الضحية ، التي ألقاها بالأمس شاةً منفردةً في طريق مهجور ، لابقاها أسداً في عرينه ، بوزارة لداخلية . ولكن الموظف الكبير قال لصاحبه إنه يؤمن ، على الرغم من كل هذا ، أن الشاب سوف يأتيه . وحلّ الموعد ، فإذا السكرتير يخبر الموظف الفخم ، بأن شاباً ، لا ييوح باسمه ، يريد لقاءه . وأذن له .

ولم يمض أسبوع حتى كان الشاب يعمل في الشركة . وعجب مدير الشركة للذي حدث . وحفزه فضوله وحذرُه إلى متابعة الشاب ، بحساباته شيئاً خطيراً ، لا يوثق به هكذا سريعاً .

\* \*

حدث هذا منذ سنوات عشر . واليوم تزور الشركة ، فترى الشاب قد خطا في الترقية خطوات سريعة متتابعة . فما الذي غير مجرى حياته هذا التغيير ؟ كانت الأيام تجري به إلى السجن أو المشقة ، فإذا بها تجري به إلى عيشة راضية مستقرة ، فيها العمل ، وفيها الأمل ، وفيها الحياة كما يجب أن تكون الحياة .

غير من مجرى حياته إيمان الرجل بالرجل .  
نظر الموظف الكبير ، موظف الداخلية ، إلى الشاب ،  
ومظهره مظهر المجرم ، فباه على غير انتظار ثقةً يحبُّها الرجلُ  
الشريف . فبادله الشاب ثقةً بثقة ، ولم تكن الجريمة ذهبت بعدُ  
بكل ثقته بالغاس .

إن الشاب الذي زلَّ في الطريق ، ولم يتمرَّغ بعدُ بطين  
الأرض ، تنهض به وبرأسه إلى حيث يرفع الناس رؤوسهم فوق  
سطح الأرض ، يدُّ مصافحةً تمتد إليه رفيقةً مُعينة .

إنه ليس كالإيمان يُسَدِّدُه العقلاء الرحاء لشاب فقد الإيمان  
بنفسه . فبادلوا شبابكم إيماناً بإيمان ، يَهْتَدِ الضالُّ وَيَرْعَوْ  
لِالغَاوِي ، وَيُسَدِّدِ السَّالِمُ ، وتنتشر الطمأنينة ، وتصلح الأحوال .

تحرك الزمن ...

... فتحركت همومه

عزفت رجلا توالى عليه  
المواب ، كأنما تتخير الأيام  
بمصائبها . وكان جزعا شديدا  
الجزع . يمرض ابنه بالتيقود

فيتصور النعش ،  
ويرى الجنازة ،  
ويتصور المنزل  
وقد خلا من  
ابنه . وتقوم بينه

ليس أكبر الهم دائما هم  
المال ، وليست كبرى  
البلايا دائما بلية الموت .  
ومن الهم ما شفاؤه  
الفقر ، ومن البلايا  
ما شفاؤه الموت .

وبين زوجته خصومة لا تلبث  
بتدخل الأهل والأقارب أن  
تشتعل فتكاد أن تأتي على  
البيت ومن فيه ، فما أسرع  
ما ينصور الالاق ، ويتصور  
فما دونهما ، فيتخيل الفقر  
المدقع وقد نزل به في حياته ،  
واستقل بذريته من بعد مماته ،  
فيميت الليالي يبكي بفيردموع ،  
وشر البكاء الذي لا يذمّع .

وأصيب في عمله ، وأُخرج منه بتهمة ملفقة مكذوبة ، فتخيّل أنه لم يبق له بالحياة حاجة ، وكيف تكون لأحد حاجة بالحياة وقد ذهب رزقه وجاءته الفضيحة . والأعمال تُطلب فيشُقّ مطلبها على الشرفاء ، فكيف بالمفوضوحين المجرّحين . وحاول أن ينتحر فأخفقت محاولته ، فظن أن القضاء لا يريد له حتى المخلص من شقاء .

ومضت عليه سنوات عشر وعشر وعشر ، فإذا الرجل لا يزال حياً ، ولا يزال عاملاً . وأولاده نشأوا وترعرعوا ووجدوا من العمل خيراً مما وجد أبوم . والبنات تزوج أكثرهن خير زواج . والأسرة صارت لها «خيرة» ليست بالكبيرة ، ولكنها على كل حال تكفل للرجل ولزوجه — حتى إذا اعتزل — عيشاً طرياً رخياً . كل الهموم ذهبت ، وكل المخاوف انقشعت ، ولم يبق منها إلا آثارها في وجه الرجل ، تجاعيد عميقة ، وإلا في رأسه ، بياضٌ شامل ، كان كالقصة التي مُسحت سطورها ، أو مُزقت صفحاتها ، فلم يبق منها إلا الجلدة ، تقرأ عليها عنوانها الفاجع . تقرأه في هذا الوجه المتجلد ، أو في الرأس الذي عمّه الشيب قبل أوان .



ورجلا آخر عرفت . . . جاءه من المصائب مثل ما جاء صاحبه ، وخير مما جاء صاحبه ، بل شر منه ، ولكنه كان من ذوى الخيال البليد أو التبلد . فأخذ يحسُّو كأسَ الزمان المرّة حَسوةً من بعد حسوة ، وهو يرجو كل مرة أن تحلو ، ولكنها لا تحلو . حتى إذا قارب النهاية ، وجد الحلاوة في لسانه . وجد السكر في قاع الكأس المرّة ، كما يجد شارب القهوة حلاوتها في آخر الفمجان الذى نسى أن يقلّبه . فكانت حلاوة ممتازة لا تشابهها الحلاوات ، لأنها جاءت من بعد مرارة ، وجاءت مرّكة . وتنظر في حال هذا الرجل ، وتقرنها بحال صاحبه ، فلا تجد فرقاً كبيراً في النتيجة ، إلا فروقاً بين الوجهين ، وفروقاً بين الرأسين . . فروقاً بين العنوانين . ففي عنوان ذاك ، ذى الوجه الكثير الغضون ، تقرأ الأسى والألم سطوراً . أما فى عنوان هذا ذى الوجه ذى البشرة التى لا تزال ناعمة ، فإنك لا تقرأ شيئاً .

إن الفرق بين الرجلين فرق مزاج ، ولكنه فرق ما بين الظلمة والنور ، أو هو فرق ما بين الشقاء والسعادة ، أو بتعبير أدق ، هو فرق ما بين الشقاء وانعدامه . والعدم خير من الوجود الذى يكون شقاءً ويكون ألماً . وانعدام الشقاء أول خطوات السعادة ، وانعدام الألم أول السبيل إلى اللذة .

أو أن الفرق بين الرجلين فرق في النظرة إلى الزمان . نظرَ الأول إلى زمانه وما يأتيه ، فحسبَ الزمان جامداً ، وحسبَ الذي يأتيه به الزمان باقياً مخلداً . أما الرجل الآخر فنظر إلى الزمان فوجد أن أيامه ولياليه تتعاقب ، ووجد فصوله تتوالى ، وتتوالى السنين والقرون : ووجد حظوظ النبات ، قصير العمر ، تتغير وتتبدل . وكذلك وجد حظوظ الحيوان : فعرف أن حظه لا بد أن يكون كحظ هؤلاء وهؤلاء . فكلما جاءته مصيبة تربص بها الزمن أن يرفعها ، وإذا بقيت فيه منها جروح تربث بالزمن أن يلامها . فعاش في سواد الليل على أمل الصباح المرتجى . وكان من شيم هذا الرجل الدائرة ، أنه إذا جاء نهاره توقع أن يأتي من بعده ليل ، فلم يفرح بنعمة تأتيه فرحاً بالغاً ، لعلمه أن النعم إلى زوال . إنه رأى الزمن رؤيته الحقة الصادقة . رآه متحركاً لا جامداً ، يأتي بصور من بعد صور ، كما تتغير الصور بالحركة على الشاشة البيضاء .

\*\*\*

حكمةٌ بالغة تلك التي أعلمها إياي هذا الشيخ في زمانه . . .  
 أنى على الجوع لا بد أن أذكر الشبع ، وعلى الشبع لا بد أن أذكر الجوع ، وفي الخيبة لا بد أن أذكر العجاح ، وعند النجاح لا بد أن أذكر الخيبة . وفي كدر الصداقة لا بد أن أذكر صفوها ،

وعندما تصفو الصداقة يجب ألا أنسى كدرها .

\*\*\*

ودخلت المستشفى أطلب جراحة . فلما تمت جاءنى الألم منها اىالى متوالية ، كانوا يخففونه فى أوامياتها بحُقن « المرفين » . فلما جاءت الليلة الثالثة أبوا على « مرفينها » أن يُعطوه ، خشية أن تقولد عندى منه عادة . وبقيتُ على الألم والظلام والوحدة ، وضيق يضيق عنه الجلد وتضيق الأنفاس . وبغتة يتمثل لى وجه هذا الشيخ الضاحك ، وتمثل حكمته : أن الزمان دائم التحرك .. وعندها أخذتُ أقول لى نفسى إنها الساعات تجرى ، فلا بد أن أعطيها الفسحة لتجرى . وأخذتُ أنظر لى ليل كما أنظر لساعة الرمل ، وزاد خيالى حدةً فرأيت الرمل يهبط حقاً من خرقة ، وترقبتُ آخر حياته أن تهبط . وخففتُ هذه النظرة آلامى ، وذهبتُ بأكثر ضيقى . ومضت الساعات أسرع ، ومضت الأيام أوحى وجاء اليوم الخامس فالسادس فإذا لى على الراحة ، وعلى الوثارة ، تأتىنى الممرضة بالطعام أشتهيه ، ونفسى كالصفحة البيضاء تنعم بفراغها على ذاك السرير فى الحجرة الفارغة الهادئة .

إن الزمان يتحرك ، ولسكنها حركة خافية<sup>١</sup> كحركة هذه الأرض التى نعيس على قشرة<sup>٢</sup> نها ، ناعمة<sup>٣</sup> كحركاتها ، وبتحرك

الزمان يأتي الظلام ويمضي ، وكذلك تفعل الآلام .  
 ومما يزيد ذا الضيق ضيقا ، أن يحسب أنه وحده في ضيقه .  
 ومما يزيد ذا البلية ألما ، أن يحسب أنه وحده في بليته . وهو لو  
 كشف الحجب ، ورفع الأسقف عن منازلها ليرى ما فيها ، أو لو  
 أعطى جسمه شفافة الأرواح فنفذ إليها من الجدران اختراقا ،  
 أو من الأبواب وهي مغلقة ، لعرف أن في كل بيت بلية ، وأن  
 لكل صاحب بيت هما ، ولكل صاحبة : وليس أكبرهم  
 دائما هم المال ، وليست كبرى البلايا دائما بلية الموت . ومن  
 هم ما شفاؤه الفقر ، ومن البلايا ما شفاؤه الموت . إن الله  
 أعطى الإنسان اللسان يكشف به عن نفسه ، ولكنه أعطاه  
 كذلك الصمت يستر به على نفسه ، ولو تحدث الناس بالذي  
 في طواياهم ، وصدقوا ، اعرفوا أن حظوظ هذه الدنيا من  
 خوف أكثر من حظوظها من اطمئنان ، وقسمتها مما يسوء  
 أكثر من قسمتها مما يسر ، ولو أن الناس نطقوا ، وأفصحوا ،  
 عن نية خالصة ، لكان لهم بالشركة فيه ، أو لكان بالتعاون عليه .  
 واستفصال أسبابه .



إن أبا المولود يفرح بولده ، ولا يكاد يخطر له في بال أنه في  
 تلك الساعة التي نزل فيها وليده ، نزل من ولائد الدنيا ألفة

وألف ، وفرح من الآباء ، أو لم يفرح ، أوف وأوف .  
والإنسان يفقد أمه أو أباه ، أو يفقد ولده ، ولا يكاد يخطر له في  
بال أنه في تلك الساعة ذهب عن الدنيا أوف من آباء وأمهات  
وأولاد ، جمع بين أحداثهم الواحدة ، الزمن الواحد ، وفرق  
بينها المكان . ولو توحد المكان ، لكان من الأمر ما هان . لهذا  
كان موت الميدان ، في الحروب ، أخف من موت الفراش في  
الأسرة ، هؤلاء يموتون جماعةً ، وهؤلاء فرادى . ومن الأحداث  
ما يجمع بينها المكان الواحد ، ويختلف الزمان . ومن ذلك ذهاب  
الجد والأب والولد من بيت الأسرة الواحد ، يمضون على أحقاب  
متفرقة ، فيزيد في ألم الشتات اختلاف الزمان ، لارتباط بحاضر ،  
وتعلق بماض ، وتربص بمستقبل .

وبين ساعة الميلاد وساعة الموت ، تجري صروف الدهر  
بما يشبه حلاوة الميلاد وما يشبه مرارة الموت ، وإني لأعجب لرجل ،  
هذا بدؤه وهذا انتهاؤه ، أن يفرح فرحاً زائداً بشيء ، أو يأسى  
أسى بالغاً لشيء .

إن حياة الناس كأنهر الأرض ، لها منبع ولها مصب . ومن  
البحار تعود فتنشأ الأنهار : ومن الأنهار القصير السريع ، لأنه  
يهبط من جبل : ومن الأنهار الطويل المتهادى لأنه يجري في

انبساط . ومن الأنهار المستقيم ومنها المتعوج حتى لتحسبه عائداً  
من حيث أتى . ومن الأنهار ما يضيق مجراها حتى لتحسب أنها  
تمضِبُ وتجف ، فإذا بلغت مداها اتسعت ، فلا تكاد توالف  
بين هذه السمة وذاك الضيق . ومن الأنهار ما تعترضه الشلالات .  
ومنها ما يدور حول جُزُر . ولكنها كلها تنتهي دائماً إلى المحيط .  
الأعظم ، فتُنسى ، ويُنسَى معها وجودها ، وكل ما كانت قد  
لقيت في مجراها .

وكذلك الناس ، يلقون ما يلقون بين شروق الحياة  
وغروبها ، وعند الغروب يستوى العظيم والضعيف ، والكثير  
والقليل ، وذو اللون الزاهي ، وذو اللون المغم ، لأن الألوان  
توحد بدخول الظلام :

\*\*\*

هل خططت يوماً بأصبعك في الماء ؟ إن الماء ينضم من  
وراء إصبعك ، إذ هو ينشق من أمامه . وترفع إصبعك عن الماء ،  
فكانك ما خططت . . فهكذا الحياة :

إن حياة كهذه لا تحمل الإسراف في شيء مما يُسرف فيه  
الناس . لا تحمل الإسراف في أمل أو طمع . ولا تحمل الإسراف  
في كراهة أو غضب . ولا تحمل الإسراف في ملقٍ أو حب .

وإذا اعتدل الإنسان في كل هذه ، خفت آلامه ،  
وقلّ توجّعه ،

إن الإحساس بالزمن الجارى ، يذهب عن الناس بشيء  
كثير من فواجعهم ، ويذهب كذلك ببعض مفارحهم . وهو  
في الحالين كسبّ ، لأن مبهمة الحقيقة ، لا الشعر والخيال .  
على أنك إذا فضلت الشعر والخيال ، فامنح الضحك .  
بالدموع ، واجمع بين طرفي الحياة ، اللذة والألم . والنتيجة آخر  
الأسر واحدة .

## حشاشون ... بلا حشيش

الحشيش ، أى شىء قال : ...

هو؟ وأى فعلٍ له بالرأس؟ وبعد قليل كما عند

وأى أثر له فى النفس؟ شاطئ النيل، جنوب قصره

واختلاف الإخوان المنيق .

المجتمعون، فمن قائل إن النفس كان هذا منذ ثلاثين

عاما . وكان القوم

من الشباب المختار،

ممن توتّم فيهم

المتوتّم عند ذلك

خيبرا ، حقيقة

إن أئمن ما فى الرجل منا  
الفكر ، ومن أئمن ما فى  
الفكر الخيال ، ولكن  
غير ذلك الخيال الذى  
ففيه حشيشة الليل ،  
أو حشيشة النهار .

به تمّوع . ومن

قائل إن الوعي به

يروح ، ومن

قائل إنه لا شىء

إلا الصداق . ولم

لا شك الأيام . وأنت لو

بحث عنهم اليوم ، لوجدت

أسماء الكثير منهم على السنة

الناس ، ومِلء أسماءهم .

وركبنا القارب . وخرجنا

يقول أحد من الحاضرين عن

خبرة . قالوا ما قالوا عن سماع .

قال قائل منهم : إذا

اختلفت الآراء فالحكم للتجربة

قلنا أين ؟



به في طلب العلم الذي أمرنا أن نطلبه من المهدي إلى الابد ، وفوق  
اليابسة وفوق الماء . وبعد نصف ساعة ، والقارب يشق الماء ،  
هدأ سيره بفترة . وصفر الصافر . فكان جواب ذلك قاربا خرج  
من الظلمة من حيث لا ندري ، فقد كنا في غيبش المساء ، وقد  
ثقلت الظلال وامتنع النظر .

وانتقل رجل من هذا القارب إلى قاربنا ، على الصمت ،  
حتى السلام لم يؤده . كان الرجل رجل أعمال لا رجل أقوال .  
ومضى علينا بالجوزة ، وهي معمورة ، في نظام مرسوم ، وأخذنا تهتيا  
للدخول في عالم مجهول . ونحن نضحك ، ويسائل بعضنا بعضا  
أين بلغ . ولما لم نكن بلغنا شيئا ، عاد الرجل بجوزة ثانية ، وبها  
علينا دار . وعُدنا نسأل أين بلغنا ، فلم يأتنا أحد بقول فصل .  
وبينا الرجل بهم بالعميرة الثالثة ، صاح صائح منا ، وكان معروفا  
بدينه : أبا لا أستطيع أن أبقى على هذه الريبة ، ولو في سبيل العلم ،  
فوق هذا القدر من الزمان . ولما كانت الريبة لا تأذن لأحد أن  
ينفصل عن الجماعة ، إلا إذا انفرط عُنْدُها ، فقد عُدنا أدراجنا .

\*\*\*

وفسر بعضنا هذه الخيبة فيما قصدنا إليه بأننا لم نحس  
الأنفاس شدا . قال آخر : بل المزاج لم يتهتيا ، وأكثركم بالذي

كنتم فيه كافرون . قال ثالث : بل إن الغش دخل كل شيء ،  
فهذا لا شك حشيش فاسدٌ عتيق .  
وأسفنا لفوات الفرصة التي لم تعد قط .

\* \*

ووقع في يدي الحشيش بعد ذلك ، بسنوات عدة ، مقادير  
هائلة ، يملأ المقدار منها اليدين ويفيض ، ولكنه كان لاختباره  
في المعمل في أنابيب الزجاج ، لا أنابيب الجوز والقاب ، ولم  
أعرف منه إلا رائحة له لذيدة ، جعلتني أتعرف بها وهو يهب  
نسائم قليلة مع الريح .

وعدت أفقش عن أثره في الكتب . فإذا برجل مفذ  
قرون بصف ما وجد منه فيقول : إن الحشيش يملأ العقل  
بخيالات لذيدة تتتابع في إحفل أعظم .

واقيت متهما بالحشيش ، فسألته كيف وجدته . فابتنم على  
الرغم مما به من سوء ، وشعشع ، ونظر إلى السماء وقد تهال وجهه :  
ولقد أغناني ذلك عن أن ينطق . ولكنني ألحخت فقال : هل  
لك آمال في الحياة ؟ قلت : نعم . قال : وهل ببنت قصورا في  
العلالي ؟ قلت : قد أكون . قال فهذه الآمال تتحقق لك بغير  
جهد ، وهذه القصور تُبنى لك في العلالي وأنت قاعد . ثم تصعد

فيها طبقة من بعد طبقة ، تستمتع برياشها ونعيمها ، من مذكور  
وغير مذكور ، بدون سُلْم ، حتى ولا مِصْعِدٍ تصعد به ؟  
ومضيت عن الرجل ، وقد تعلق بأذني من قوله : إن هذه  
القصور تُبْنَى لك في الملالي وأنت قاعد .

وأدركت فسكري فيمن أعرف من الرجال ، فوجدت  
كثيرين يبدون القصور وهم قاعدون ، فقلت لنفسى : إن الدنيا  
ملينة بالحشاشين ولا أدري . حشاشون بغير حشيش .

\* \*

أعرف رجلاً ذكياً قادراً ، في خاطره التوقد ، وفي خياله  
الحركة . والكتها حركة تجمعت كلها في رأسه ، فلم يَفِضْ منها  
ليديه ورجليه شيء . فهو قاعدٌ ورأسه يدور . وهو قابعٌ حيث هو ،  
وفكره سَيَّاح جَوَّال عمه الكسلُ إلا في الذروة من كيانه .  
يُريد الغنى ، فيصور لنفسه ألف سبيل إليه ، لا يسلك منها سبيلاً .  
ثم يتصور أنه نال الغنى ، قصوراً وحدائق . ويصتم القصور ،  
ويخطط الحدائق . ثم يقعد في شرفة القصر يستمتع بنسمة تأتي  
في الصيف . وهو يجُول في حدائقه ، يَقْطِفُ ما يَنْعَ فيها من  
الزهر . ويدخل إلى حجرة المائدة فيجد فيها من الثمر ، ومن  
كل طعم ، زوجين . إنه يحلم وهو يقظان . وتوقفه من حلمه

فتختفي كل هذه الصور الجميلة ، ويسقط منبطحاً من سنامه على الأرض البسيطة ، فلا قصور إلا البيت العتيق ، ولا طعام إلا طعاما غير أنيق ، ولا حديقة ولا نسمة إلا الصَّهْد يتصاعد من زفت الطريق .

وآخرُ طابِ الأدب ، وطلب الكتابة والخطابة ، وطلب عن طريقها الزعامة . والأدبُ والكتابةُ لا يكونان إلا عن درس ، وعن جهد جهيد ، وعن ليالي ساهرة ، وعن أصباح وأمساء بالعمل زاخرة ، وعن خيمة تملوها خيمة ، يتخللها بريق من أمل . وأراد أن يدخل البيت من بابه ، فمجز . ولقد حاول فما صبر . وبقي الأمل حيّاً في قلبه . رأيتُه قام يحققه مرة وهو يقظان يحلم ، يخطب من غير صوت ، ويُشيع بيمناه ويسراه . وأخيراً صفق الناس فأحى رأسه شكراً ، ذات اليمين وذات الشمال .

وليس كل الناس تظهر عليه من أحلامه أعراض .

فمن الناس من يجلس إليك ، وتحسبُه هادئاً ساكناً ، وفي فكره تقوم الدنيا وتقع ، شريطٌ للأحداث يمرّ أمام عينيه ، طويلٌ عريض . هو بطله . وهو من صنع نفسه . وتحذّثه وهو عندك غافل سام . وتناديه فيصل إليه الصوت كما يصل إلى النائم .

ويقطع حلقة وهو آسف ، كما يأسف النائم للصحو من حلم لذيذ ،  
مطَيَّته السحاب .



إن أئمن ما في الرجل منا الفكر ، ومن أئمن ما في الفكر  
الخيال . والخيال جُعلَ ليجمع به المرء من الأشياء أجزاءها ،  
ومن الحوادث أطرافها ، وليصور به لنفسه كيف تصلح الأمور .  
وهو خيال يتصل بالواقع ، ويتصل بالمنطق ، ويعتمد على المُمكِنات .  
وهو أداة المخترع حين يخترع ، والعالم حين يبتدع ، والشاعر  
حين يَقْصِد القصيد ، والفيلسوف حين يُفْتَق الأمور .  
ولكن غير ذلك الخيال الذي تُثيره حشيشة الليل . وغير  
ذلك الخيال الذي تُثيره حشيشة النهار .

## الأكل فن وفلسفة

أذكر أنى فى السموات  
الأولى من إقامتى بإنجلترا ،  
كنت أنزل فى أسرة ليست  
بذات ضيق ، وليست بذات  
سعةٍ و ثراء . وهبط علينا  
ذاتَ يوم رهطٌ  
من الممثلين  
والممثلات ، على  
رأسهم الممثل  
الشهير ، السير  
فرنك بنسن . جاءوا من لندن  
إلى هذا البلد الكبير يُخَيِّنون  
لياليه . وجاء وقت المساء ،  
فوجدنا أكثر القادمين قد  
خرجوا إلى المدينة برؤودونها .

ولكن بقيت منهم فى الدار  
بقيةٌ اجتمعت معنا على المائدة .  
وكانوا ثلاث بنات ورجلا . وقد  
ازينت البنات زينةً رائعةً فوق  
ما زانتهم الطبيعة به من جمال .  
ولم يكن فى الزينة  
غلو ، ولكن  
كان بها كمال .  
والوجوه تراءت  
كوجوه من نور .

لا تشموا الضام كما  
تشمه الهائم من اشتهى  
شيئاً فليأكل ، ومن كره  
فليدع .

والعيون برقت من بين ظلال  
الرموش . والحواجب تزججت  
فى حدود الطبيعة . والحدود  
توردت فى اعتدال فما تكاد  
تدرك أكان هذا عن طلاء

مصنوع أو هو لون مطبوع . والشِّغاه احرَّت حتى كادت تَدَمَى .  
وافترت الشِّغاه في الحديث فكان كزقزقة المصافير رقة . وتراءت  
الأسنان الصغيرة فكانت كأنها العاج كساه ذوبُ اللؤلؤ لو أن  
للؤلؤ ذوبا .

\*\*\*

وجاء الطامامُ ، فخشيتُ على هذا اللظام البديع من الجلال  
والكمال أن يفرط بالطعام عِثده . وخُيِّلَ إليّ ، وأنا الشاب ،  
أن هذا الحسنَ المفرطَ لم يُخلق لياكل ، وأن عيشه وجب أن  
يكون على الماء والهواء والضياء . ولكن ما لبثتُ خشيتي أن  
زالت ، فقد لبثتُ على المائدة ساعة أنعمُ فيها بفن الطامام لم أعهد  
على هذه المهارة قط . فنَّ سما فناهض هذا الحسنَ براءة صنعة به  
لم تدسخ فيه أنملة ، ولا تبللت شفة ، ولا سُمِع للأخراس الطاحنة  
طحن . وسواء صأَّب الطامام أو سال ، فقد مرَّ من مساربهِ في  
سهولة ورفق ، كالماء يسيل منحدراً في نعومة وملاسة .

لم تكبر اللقمة قط عن بعض ما يتسع له الفم ، وهي تتحوّر  
وتتدوّر حتى تأخذ شكلاً هندسياً مناسباً قبل بلوغها مدخل  
الطعام . ولا يكاد يحسن الناس أنه يُبذل في تدويرها وتكويرها  
جهد . وهي إذ تبلغ مدخل الطعام لا يكاد يفتح الفم لها إلا بمقدار

ما يفتح عند الكلام . وهى تختفى فيه فلا تراها من بعد ذلك أبداً . ويلوكها الفم ، ويلوكها ، ولا تسكاد ترى لدورانها فيه حركة . ويفرغ منها ، فتتظر ، فما تحسب أنه أكل أو هو آكل . كان أكلًا كما يلتقط الكنار حبه .

ولم تتوقف هذه الحسان الثلاث أثناء ذلك عن حديث ، وما توقفت عن رد الخطاب . لأن مجرى الكلام ، وهو مجرى الطعام ، لم يزدحم قط . وأسلوب الأخذ ، وأسلوب الإعطاء ، وأسلوب الرفع وأسلوب الخفض ، وأسلوب الدفع وأسلوب الجذب ، كل هذا كان فناً على المائدة رفيعاً ، تعلمه لا شك في الكواليس ، فيما تعلم من فنون ، وكن مثقفات ، فأحسن تعلماً ، وبلغن به مبلغ أرسطراطية ناضجة ، موطنها البيوتات العتيقة الرفيعة ، فجئن يعرضنه غير عامدات ، في حيث أدى بهن المظاف ، في بيت لا هو بالعتيق ولا الرفيع ، ولكنه بيت نزلت فيه .

\*\*\*

ورُفعت المائدة ، وانفض الآكلون . وخرجت من الدار . ثم عدت في الليل متأخراً . ودخلت حجرة الطعام فوجدت شيخ الممثلين وحده ، يأكل . وكان طعامه خبزاً أخذ يفتقه في اللابن ، ولم يكن الفت عندهم بأسلوب الأكل مستساغ . فقال لما رآنى :



لا تُبالِ يا بني بالذي يصنع شيخٌ فقدَ أسماه . فقلتُ على الفور :  
هنيئاً صديقاً يا سيدي ، فإنما أردت أن أقول طاب ليلك . وعدت  
أدراجي لأترك له خلوته .

\*\*\*

وأخذت عندئذ أفكر ، فأحسب أن الأساليب شئ عظيم ،  
وأن أطرزة التقاليد لم تكن عبثاً ، وأنها دائماً أبداً ترمى للمعنى ،  
وأن هذا المعنى قد يكون صريحاً أول الأمر ، ثم هو يذهب من  
بعد ذلك ، فيقوم التقليد وحده من بعد ذلك ، فيظلمه الناس  
عبثاً ، وما هو بالعبث . إنه لفظٌ فقد معناه ، أو انهم معناه ،  
ولكن يبقى له جرسه المسموع المؤلف الحبيب .

وأدب الأكل تقليدٌ لم يفقد بعد معناه ، وفنٌ لم تضع أصوله  
ولم يضع بعد مغزاه : وقد انبنى فن الأكل على كراهة التشبه  
بالحيوان . على هذا يبيذه الأحداثون ، وعلى هذا بناء الأقدمون .  
قال محمد : لا تشمُوا الطعام كما تشمه البهائم ، من انتهى  
شيئاً فليأكل ، ومن كره فليدع . وقال بعض الحكماء لولده :  
يا بني ، عود نفسك الأثرة ، ومجاهدة الشهوة ، ولا تنهش  
نهم السباع ، ولا تخضم خضم الحمار ، فإن الله جعلك إنساناً ،  
فلا تجعل نفسك بهيمة .

و نبنى فن الأكل ، فيما انبنى ، على حساب أن الأكل غاية الحياة الأولى . وما هو غير ذلك . ولا يَهْوُلُنَّ أحداً ذلك . فهذه الملايين تطلب الأرزاق ، فتُحْفَى الأقدام ، وتُنْهَكَ السواعد ، فى أى شيء ؟ فى طلب الطعام . وهى إذ تحظى به ، لا بد أن تحتفى به وتحتفل ، كما يحتفل الصائد بصيده . فالمائدة وجبت أن تكون احتفاء واحتفالاً .

والاحتفاء لا يكون على قذارة . فأول شيء يكون التنظيف والتطهر ، ولبس الجميل من الثياب . وقد جعل الإفرنج المائدة ثياباً خاصة ، وما ذلك ببدع . فكذلك فعل العرب قديماً لما كان لهم عز الدنيا . فعلى المائدة يجب أن لا تقع العين على غير الجميل . ويحسن بالنساء ، مع لبس الجميل ، أن يتطينن ، ليذعن فى الحجرة بعض روائح الجنة . فكل هذا يفتح الشهية ، فى غير نهم ، ويكون الطعام عليه ، للجسم ، على القلة ، أكثر فائدة وأكبر عائدة . ثم الحديث . ولن تجد حديثاً أحوج ما يكون إلى البراعة ، وإلى الفن ، كالحديث على مائدة . ولن تجد أفصح للرجال ، ولا أكشف عن حسن أذواقهم ، أو عن قبورها ، كمائدة . وقد يخطئ بعض الناس فيحسب حديث المائدة فرصة لإظهار علم ، أو لإيضاح فلسفة ، فلا يلبث أن يبنى جزاء هذا عاجلاً ، لا سيما

من عند امرأة ليس وقت بناء الأبدان ، وقت إشغال العقول وإتباعها ، وإنما هو السير الرهوف في غير عَمَتٍ ولا إجهاد ، فقد كفى الآكلين بالذي حدث في يومهم جهداً وإعناتاً .

وأحب فنون الحديث على الطعام أخفها على السمع ، وأنشطها للقلب . والفكاهة لها المكان المثلّى . وحديث الأحران ممقوت ، وكذلك حديث العواطف الشديدة ، فإنها لا تأتلف والهضم ، فالهضم يتطلب الاسترخاء .

\* \*

وليس من فن المائدة الجميل أن ينظر المرء إلى ما يأكل رفيقه في الطعام ، ولا إلى كيف يأكل حكوا أن معاوية أجلس على مائدته أعرابياً يؤاكله ، فأبصر في لقمته شعرة ، فقال : خذ الشعرة من لقمته . فقال له الأعرابي : وإنك لتراعيني مراعاة من يبصر الشعرة في لقمته ! والله لا أكلت معك أبداً . وخرج منه وهو يقول :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ      يلاحظ أطراف الأكيل على عمد

ومن فن المائدة أن لها مجالس يرتب عليها الآكلون ، ولها أسلوب يتوزع به الطعام . ولا تحسبن هذا بدعة قد ابتدعها المتأخرون ، وإنما هي الحكمة استنّها المتقدمون .

قال أنس : قدِم النبيُّ المدينة وأنا ابن عشرة ، ودخل دارنا فخلبنا له شاةً فشرب ، وأبو بكر عن يساره ، وأعرابيٌّ عن يمينه ، فقال عمر بن الخطاب : أعطِ أبا بكر . فقال النبي : الأيمن فالأيمن .

وقال عمرو بن كلثوم في معلقته :

صَدَدَتِ الكَأْسَ عَنَّا أُمُّ عَمْرُو      وَكَانَ الكَأْسُ مَجْرَاهَا اليمِينَا  
وَمَا شَرَّ الثَّلَاثَةِ أُمُّ عَمْرُو      بِصَاحِبِكَ الذِي لَا تُصْبِحِينَا

\*\*\*

أما بعد فهذه أساليب الأكل وأطرزة الموائد ، ألممنا منها بطرف ، وتركنا أطرافاً . وهي كلها فن وذوق ولباقة . أما الطعام نفسه — مادته وطبخه — فهو فن كذلك . ولكنه فن يتضمن علماً ، ويتضمن فلسفة ، يتعاون على تحقيقه رجالان ، طبّاخ وعالم .

## النسبة والتناسب

في المدارس تعلمنا معنى  
النسبة . فالليم تنسبه إلى  
القرش فتكون النسبة واحداً  
إلى عشرة . والقرش تنسبه

إن نسبة ١ إلى ٣ كنسبة ٢  
إلى ٣ أو ٣ إلى ٣ . لا يخطئ  
أحد في الحساب ، وأرقام  
الحساب .

إلى الريال فتكون النسبة ١  
ولكن للحياة حساب

إلى ٢٠ والريال  
تنسبه إلى الجنيه  
فتكون النسبة  
١ إلى ٥ رهم جراً .  
وكذلك التناسب .

شرارة صغيرة أحدثت  
ناراً ، أكلت أعماراً ،  
وختمت آمالاً ، كان من  
حقها أن تطول ، وكان  
من حقها أن تأل ، وكل  
ذلك بسبب حسن بالنسب  
ضائع .

نسبة ١ إلى ٣ كنسبة ٢ إلى  
٦ ، وكنسبة ٣ إلى ٩ . ما في  
هذا شك .

أرقامه ، في نسبة الحياة  
وتناسبها ، يغلطون ويخطئون  
ويخطئون .

لا يخطئ أحد في النسبة  
أو التناسب . فلا يقول أحد  
إن رجلاً يلبس على رأسه  
قبعة ، ويلبس على بدنه جبة

خضراء ، تحتها مسكوبٌ أحمر ، رجلٌ ليس فيه تناسب . إن أعلاه يذكر أسفله ، وأسفله يصرخ في أعلاه ، لقيام هذه النسبة الجائرة المتنافرة .

وامرأة تراها في الطريق ، تحمل على ذراعها شيئاً تحسبه طفلاً . وتنظر في هذا الطفل ، فتجد أنه رجلٌ مكتمل ، له شاربٌ وله لحية ، وفي يده عودٌ في أعلاه قرصٌ من حلوى ، وهو يلعق القرص بلسانه ، منظرٌ غير مؤتلف ، لا يستقيم ما تقع عليه العين منه أولاً ، مع ما تقع عليه العين آخراً . الخطأ فيه خطأ في النسبة والتناسب .

وبيت صررت به ، في شارع فاروق ، طوله متر وعرضه فتر ، وارتفاعه ما لا تبلغ العين . لو نظرته من عليّ لحسبته نصل السكين وهو قائم وسألت ، فقيل أرضٌ أكل الشارع الجديد المفتوح أكثرها ، وبقيت لصاحبها بقيةٌ لا تنفع لشيء ، فانتفع بها ليضرب مثلاً للنسبة كيف تعقل ، وللتناسب كيف يختل ، وللحرية كيف تفسد بين فرد وشعب ، وللفوضى كيف تسود بين حاكم ومحكوم .

ورجل في السبمين ، تزوج فتاة في العشرين . عنده الثراء وعندها الفقر . وقد يستكمل الفقر من ثراء ، وقد يستكمل الثراء

من فقر ، لأنهما نقيضان يجري عليهما من الجمع والطرح ما يجري على سائر الأرقام . ولكن في هذين الزوجين من النقائص ما لا يجمع وما لا يطرح . ففيهما الضعف في ناحية والقوة في ناحية ، وهي قوة تطلب القوة ، ولا تستكملها إلا القوة . وفيهما البرودة في ناحية ، والحرارة في ناحية ، وحرارة الحياة لا يستكملها إلا حرارة مثلها .

ورجل ثرى ، يملك من المال الألوف مؤلفة ، فإذا أعطى أعطى سُخْتًا ، رجلٌ اختلت فيه النسبة . وآخر لا يجد قوت يومه ، يسأله السائل فيُعطي قوت يومه ، فتحمد ذلك فيه ، أنانية منا . وهو في الحق لا يقل عن أخيه اختلال نسبة وتناسب . ومثلُ هذين رجلٌ إذا سُئِلَ في بيته أعطى قليلا ، وإذا سُئِلَ خارج بيته أعطى كثيرا ، نفاقا ومظاهرة . ورجل ينفق في طعامه قرشًا ، وينفق في دخانه ثلاثة قروش ، ورجل يختل النسب .

وقوم يقيمون الولائم ، ويذبجون الذبائح ، ويدعون إليها كلَّ مُتَخِمٍ عن الطعام عازف . ويأتى اللون من الطعام بعد اللون بعد اللون ، حتى تستقيم الألوان عشرة ، يأكل الآكلون في أول الدور استطاعة ، ثم لا يلبثون أن يأكلوا على كرهٍ تأدبا . وهم إذا دُعُوا إلى طعام الفقير الجائع لا يُطعمون . وهم إذا دُعُوا

إلى وضع الطعام ، حيث يستقر به المقام من الأعمدة الفارغة لا يستجيبون . وإذا قيل لهم إن الملائكة لا يُمَلَأُ ، ولكن يُمَلَأُ الفارغ ، لا يفهمون . فهؤلاء قوم اختلت فيهم النسبة واختلت أوزانها . واختل عندهم القياس .

وصبي ينافر صديقاً في لهو ، فتخرج من هذا كلمة جارحة ، يتلقاها صاحبه بكلمة أنكأ جرحاً ، وتشهد معركة الصغار فيدخلها الرجال الكبار ، وتدخلها النساء . فإذا المعركة مغممة عامة ، وإذا الحارة أو القرية ، ميدان تلعب فيه المدى ويتطاير الرصاص . وينقشع الغبار عن قتيل وقتيل وقتيل . شرارة صغيرة أحدثت ناراً أكلت أعماراً وختمت آمالاً ، كان من حقها تطول ، وكان من حقها أن تأمل . وكل ذلك بسبب حسنٍ بالنسب ضائع .

ونسمع عن جماعة من النساء قامت تُعَنِّي بالطفل الذي ضيَّعه أهله . ونسمع عن جماعة من النساء أخرى تُعَنِّي بالرجل المسلول والمرأة المسلولة ، ونسمع عن حفلاتها ، ونرى تشكيلاتهما ، وتذاع عنها الصور والأخبار . فيحمد الجميع هذا المسمى عن حق ، وتشكر القائمين به والقائمات عن صدق . ويشعر الناس شعوراً كاذباً بحسن الحال ، ويطمئن الناس اطمئناناً خبيثاً على طيب الحال . وكل هذا الإغفال ما بين الأشياء من نسب ، وما بين



أمور الحياة من تناسب ، ولو أن الناس اعتادوا النسبة ، لسألوا هذه الجماعات كم من هؤلاء الأطفال آوت ، وكم من المسلوين والمسولات أبرأت ، ولعلموا إذا هم نسبوا هذه الأرقام ، إلى عدد ما في هذا البلد ، وسكانه عشرون مليوناً ، من أطفال مشردين وإلى عدد ما في هذا البلد من مسلولات ومسلوين ، لعلموا أن هذه الجماعات إنما تحاول أن تنزع بجرأ بكوز ، أو تروى حقلاً بفنجان ، ولأدركوا أن هذه الأعمال ، لاتساعها . ولكثرة ما تحتاجه من نفقات ، ليست مما تطيقه هذه الجماعات ، ولكنها ، بحكم الزمن الحديث وما تنشأ فيه من آراء ، من عمل الحكومات ومن قروض الدول . وإن الأمر ليس إحساناً ولا مبررة ، ولكنها حقوق المرضى والمجازين على الأصحاء والقادرين ، تؤخذ بالخصرائب يدفعها دافعها راضياً أو يدفعها غصبا .

\*\*\*

وتنزل النوازل بالرجال ، وتنزل بالنساء ، فيحسبون أو يحسبن أن هذه الدازلة أو تلك هي آخرة الدنيا . والدنيا التي عهدوها واسمة تضيق ، والهواء الذي عهدوه يمدّم بالأنفاس يخنق ، والشمس التي عرفوها تملأ ما حولهم والطرق بالبور تظلم .

ويعزفون عن الحياة ، ويرغبون الموت . وقد يأتون الموت عمداً خلاصاً مما هم فيه . فهؤلاء قوم اختل ميزانهم . لقد رجحت من هذا الميزان كفة فيها مات على الحياة من شر ، بكفة مات على الحياة من خير ، ورجحت رجحانا كما ترجح الموازين ، ولكنهم رأوا فيه ، باختلال حس القياس فيهم ، رجحانا غير ما ترجح الموازين . والموازين ترجح حيناً وتشيل حيناً ، ولكنهم حسبوه ، في شدة الفكبة ، رجحانا قد انجمد عليه الميزان ، وهو لن يشيل بعد ذلك أبداً .

ومن الناس ، ذوى الذكبات ، من يختل حسهم بالقياس حيناً ، وحسهم بالنسب ، ثم يعود . ومنهم من يختل هذا الحس عندهم ويدوم . ويأتي الزمان ، يريد أن يفعل فعله في الرزء الكبير فيصغره ، وفي الذكبة الثقيلة فيخفف منها ، ولا يستجيبون للزمان في تلطيفه وتخفيفه . إن الأشياء تصغر على البعد ، ميلاً ، بعد ميل ، بعد ميل . وتتباعد النجوم المائلة فتتراءى نقاطاً متألقة من نور تجعل من السماء زينة . ولو أنها بانت لنا على البعد ، كبيرة كما هي ، ولم تصغر ، لكفى منها نجم واحد تُسد به علينا المسالك . والزمان يفعل على البعد ما يفعل المكان .

إن الشيء الذي يبعد في الزمن ، ويفور ، يصفر . وتصغر  
 كذلك الأرزاء والكبات . ويبين الماضي ، تنظره العين من  
 بعيد ، كما تبين السماء ، زينة من أرزاء . وتشجى لمنظرها  
 النفس وتجيش ، وتذكر النفس ما تذكر منها فتطيب . وقد  
 تمضى لذائد الحياة جميعاً فلا يبقى منها إلا لذائد الكريات .

## أستاذنا معذور

أستاذنا الجامعي شابٌّ ، في سبيله عادةٌ وتحسُّسا .  
 أو هو لم يَعدْ بعدُ صَاحِلَ وتزوج ، فانتفض أصحابه  
 اصطلاح الناسُ على أن يَعدَّوها لهذا الزواج وانزعج تلاميذه ،  
 صَاحِلَ الشباب ، ولكنه لأن أحدا لم يُصدِّق أن هذا  
 مع هذا قد أوغل في المهنة الرجل ، الذي تقمص روحَ  
 إيفالا ، وعلاه الأستاذ المثالي ،  
 الجِدُّ فأكسبه وهو لم يَبْقَ عليه  
 مِسْحَةٌ هي أجدر ليتفق ظاهره  
 بالكهولة، وأصابه مع باطنه ، إلا  
 للسهر في أكثر أن يُرخي لحيه ،  
 ساعاته ، فعاش في نفسه ويضع على قصبة أنفه نظارة ،  
 أكثر مما عاش في ما حوله . ويحمل تحت إبطه محفظة ،  
 ويمشي في الطريق وقد اشتغل أن هذا الأستاذ يدخل إلى  
 رأسه بمسألة ، وتركز فكره قلبه الحب . وتناقش الطلاب ،  
 على حلِّ مُعضلة ، فهو يهتدي في جدٍ خطير ، من إناث

الحب والفلسفة ، هل  
 يجتمعان في قلب ؟ وهل  
 حقا أن الفلسفة تورث  
 القلب قصورا في الحب ؟

وذكور ، كيف يجتمع في القلب الواحد علمٌ وحب . وزاد في خيلتهم ، وزاد في حيرتهم ، أن العلم هذا كان فلسفة ، والفلسفة لها وقار ، اجتمع رأيهم جميعاً على أنه لا يمكن أن يأتلف ونزق الحب . ومرت في أخیلتهم صورٌ من سقراط وأبقراط ، وأرسطو ، فلم يستطيعوا ، ولم يستطيعن ، أن يجمعوا بينها وبين الحب أبداً . لم يستطيعوا أن يجمعوا بين ثقلٍ يلحقونه بها وبين خفة يتطلبها الهوى ، أو ملاءمة وموائمة لا بد أن تكون إذا أعقب الحب زواج . وتقول لهم إن هؤلاء الفلاسفة كان لهم ولدٌ وكان منهم أعقاب ، فتطالعهم هذه الحقيقة وكأنها أول مطالعة . وقد يقبلونها ولكنهم كلما تصوّروا أستاذهم هذا ، وذكروا جدّه ، وذكروا توقّره ، وذكروا الرصين المتجهم من آرائه ، رفضوا هذه الحقيقة وعادوا يأتونها حتى على سقراط وأبقراط .

\*\*\*

واجتمعوا بأستاذهم في الدرس ، فاقترح الإناث على الأستاذ أن يحدثهم في الحب ، هل له مكان في القلب الذي ملأته الحكمة . وهل للصباية والحكمة إذا تجاوزا ، أن يتهادنا ويتعاوننا فلا يقوم بينهما ما يقوم بين الضرائر ؟ اقترح الإناث هذا ، وسكت الذكور والبضك يملأ أشداقهم مكتوماً يكاد ينفجر .

ولم يضحك الأستاذ . ولم يبتسم . فقد وجد فيه موضوعاً  
فاسفياً طريفاً ، فمضى يحاضر فيه على بداهة . ودخل في الحب  
بشقة ويدقه ، ويصف أعراضه وأعراضه ، ويصف ثقيله  
وخفيفه ، ويصف العابر منه ولأقيم ، ويصف الذي يغشى صاحبه  
تسلسلاً ، والذي يغشى تلصصاً ، والذي يفاجئ باغثاً . وانقلبت  
المسألة إلى درس في التشریح والتفريع ، والفصل والغم ، والفرض  
والقياس ، لم يتوقعه سامع ، ولم يتوقعه سامعة .

وتأفقت السامعات للحب ، وهو معنى روحاني مبهم  
جميل ، أن يُشرح هكذا ، على جفاف ، تشریح المادة ذات  
الوزن ، والجوهر ذي الجود .

وقامت فتاة تسأله ، أن حدثنا عن الحب الذي في قلبك ،  
كيف دخله ، وكيف جازله أن يدخله .

وساد للكان سكون رهيب . وانحبست الأنفاس ،  
واشرأبت الأعناق .

ذهل الأستاذ لأول مرة ، واحمرت وجناته . لقد علم لأول  
مرة أن قلبه هو المقصود . وخفت واضطرب ، وأراد أن يعود إلى  
وقاره . وانخفة نقيض الوقار . وكانت الفلسفة علمته أنه لا بد من  
جسر يعبُرُ إليه العابر لينتقل به من حال إلى حال . فجعل جسره

إلى استعادة وقاره ضحكة عريضة لبسها وجهه . وضحك الجميع ،  
وشاعت البهجة في القاعة ، وانطلق فيها السرور ، وردده سقفها  
صدى ، ورددته الحيطان أصدا .

وقضى أستاذنا يومه على مثل ما يقضى سائر الأيام . وأخذ  
في الرواح ، وأصدا الصباح تتردد في أذنه ، ومعانيه تتجاوب في  
صدره . وسأل نفسه : أحمًا أن الفلسفة تُورث القلب قصوراً في  
الحب ؟ واعتزم في هذه الأمسية أن يعلو سلطان الحب على سلطان  
الفلسفة . ودخل بيته وتلقى زوجته بالقبلات الكثيرة .

وكانت الزوجة العروس ، وقد مضى لها في الزواج شهران ،  
تعدّ زوجها مفاجأة لم تدر متى تفجأ بها . فوجدت هذه الساعة  
خير الساعات . وذهبت ترتب . وشملها البهو فقالت له :

— ألا ترى يا عزيزي شيئاً جديداً ؟

ونظر ملياً ثم قال :

— نعم . نعم . إنه شعرك يا عزيزتي ، هذه التسريحة الجديدة  
ما أجملها . وهذه الذوايب كاللوايب تفتح المخلق من القلوب .

قالت :

— ما هذا أردت . إن هذه التسريحة قديمة ، مضى عليها

أسبوع .

— إذن، فالجديد هذا القرط الجميل . إنها قرطان يتدآيان  
 في اختيال بهذا المحيّا الذي أبدع الرحمن القليل من أمثاله .  
 إنها كالخارسان قاما يحرسان باب الجنة ، فهذا الوجه باب جنّتي  
 على هذه الأرض . قولى لى كم دفعت فى هذا القرط البديع ؟  
 — أنت أعلم بالذى دفعت ، فهذا القرط اشترىته لى أنت  
 منذ شهر .

وحكّ الفياسوف رأسه ، وعاد يفكر من جديد . ثم قال :  
 — آه ، ما أعمانى ! إنه هذا الثوب ، فكيف عميتُ عنه  
 وقد امتلأ بك يا عزيزتى ، فما زانك على حسنه ، وكنتِ أنتِ  
 الزينة .

— لا . ولا هذا الثوب . إن هذا الثوب لبسته صبيحة  
 عُرْسى .

وأسقطَ فى يد المسكين ، وراح يتهم الحكمة ، وينجى على  
 الفاسفة . فلما رأت قنوطه ، رحمته ، وقالت :

— بل الجديد يا عزيزى هذه الصورة على الحائط . قال :

— أى والله ، هذه صورة جميلة حقًا . هذا النهر بمائه

النفسى ، ينساب فى ظلال تلك الغابة :



— لا ، ليست هذه الصورة يا عزيزي .

— إذن فأى الصور تقصدين ؟

— أقصد هذه الصورة الأخرى على هذا الحائط . إنها

هديتي إليك .

ونظر :

فإذا بها صورة ... أفلاطون .

## هربوا من الحياة ، فلا حقتهم

منذ أيام نزل بقا ضيفٌ كريم . طفلٌ دون الثالثة من عمره ، أنى ليبيت عندنا ليلة ، ومعه حقيبتة الصغيرة ، فيها قميصٌ نومه ، وحوائجٌ قليلةٌ أخرى .

وفتحها وأخرج ما فيها ورتبها في مخدع سينام فيه ؟ ودخل على حجرة كتهى ، فتأقمت به بالحلب والترحاب ، فهو من بعض دى . وفرغت له دقائق ، أطلعه على صور من حيوانات عظيمة ، فيها الأحمر والأصفر ،

والشاغر فاه . والرافع ذنبه . وتشبث بأن يختار بنفسه من فوق الأرفف ما يشاء . وفعل ، وأبى ممونتى . فلما أيقنت أن الكتب بدأت تشكوسوء المعاملة ألقيت بإرادتى ، فصدمت إرادته . فإذا بى أرام يذهب إلى مخدعه الذى سينام فيه ، ويُعيد قميصه وحوائجة القليلة إلى حقيبتة الصغيرة ، ثم يحملها بيده ويصيح بالخادمة : — هيا بنا يا فاطمة .

وما عدنا إلى مصر حتى حمل البرق إلينا خبراً : أستاذ مصرى شرب سمّاً ثم رقد ، ولم يقيم من رقدته . فإله أسأل له الرحمة .

قلتُ : إلى أين؟ قال والغضب يملو وجهه : نعود إلى بيتنا .  
وكان لسان حاله يقول :

إذا ضاقت على ديار قوم فأرض الله واسعة الفضاء  
فهذا طفلٌ ، رجلٌ صغير ، وجدما كَرِهَ فأراد أن  
يتحوّل عنه .

وكالأطفال الصبية ، ذلك الغفُّ الذي لم يحفظ دروسه ،  
ويخشى العقاب ، فيختصر الطريق فلا يذهب إلى المدرسة ،  
أو هو يهرب منها بعد أن دخلها . وكالصبية كثيرٌ من الشبان  
الذين يختصمون مع أسرهم ، « فيطفشون » .  
فهذه صفوف من الحرب ليست بذات خطر . إنه هرب  
الأطفال وهرب الصبية وهرب الشبان والغلمان . ولكن غير  
ذلك هرب الرجال .

إن النبات الصغير الغضُّ يُقتلَع من أرضه بسهولة ، وقد  
يُعَاد إلى أرضه فتعود جذوره الرخصة تُمسك بالأرض . ولكن  
غير ذلك الشجر الكبير ، فهو إذا اقتُلِع تقطعت جذوره ،  
وهي لا تعود تُمسك في تربتها ، أو أية تربة أخرى ، من  
جديد . فهذا الاقتلاع معناه التصوُّح والذبول .  
والطفل يفعل وينسى . ويفعل الصبي ولا يكاد يؤنبه ضميره ،

لأنه لم يتكوّن بعد . ويأخذ يتكوّن الضمير في الفلمان والشبان ، وهو يتم تكوّننا ويكتمل في الرجال . والضمير المؤنّب يحمله الرجل معه عند الحرب أينما ذهب .



عرفت أستاذ نبات في الجامعة ، في نحو الأربعين من عمره . وعلمت فيما يعلم الناس أنه أصابه في وظيفته عَمَتٌ . وذهبت إلى أمريكا عام ١٩٤٦ . وبينما أنا في نيويورك ، في ختام ذلك المطاف ، جاءني من يقول إن الدكتور الجداوى - وليكن هذا اسمه - يُريد لقاءك . وعرفت أنه حضر إلى الولايات هو وأسرته ليستوطن ، وأن أوراقه إلى التأمرك آخذة سبيلها بين الحاكمين . وحرّق سفائمه فاستقال من الجامعة . وأمتعته جميعها حضر بها فلم يَبْقَ وراءه في مصر من متاع . فقلت : رجل كهذا ، باع وطنه هذه البيعة ، لا ألقاه . وعاد الصديق يقول إنه يُبلّغ في اللقاء . ولم تبق لي إلا ليلتان ، فقلت لعل في الأمر سرّاً يريد أن يُفَضّي به إلى ، أو لعل كاسبهُ لمصر مرة أخرى . فقبلت . ولقيته : وقضيت معه أمسية كاملة بثّ لي فيها كلّ ممّ نفسه ، وهو ممّ يعلم الله كبير . وأصابني من جامعته المصرية كراهةٌ ، كادت أن تكون حقداً . وهتف بي هاتفٌ يقول : لو كنت مكانه لاتخذت ،

لا إلى هذه القارة ، ولكن إلى المِريخ سبيلا . وعطفتُ على صاحبي وهو يتدقق في شرح محمته . فتحينت الفرصة لأتألف له في اقتراح العودة . فاستشاط غضبا ، وقال : إنه فراق بيني وبين هذا الوطن النكد ولن أعود إليه أبداً . وأحسستُ أنه إنما رفع بصوته ليؤكد لنفسه ، لا لي ، أنه على ما هو فيه لثابت ، وأنه كالجبل راسي ، وأنه لن تحركه الزلازل . وسألته عما يصنع . قال إنه يعمل مع أستاذ للنبات في حدائق ، وأنه بدأ يعود إلى ما أفقدته إياه مصر من حب البحث . قلت وأنا أودعه : إذن فابحث ، واكشف من العلم نفائس ، سنة أو سنتين ، وعُدْ إلى مصر بهذا المحصول ، وأنا ضامن لك ، وإخوانك ضامنون ، منصباكتهواه . فمز رأسه هزة كذبها بريق خِلتهُ برق في عينيه . وقت ، فقال : وداعاً . قلت : إلى لقاء .

ولم يكن وداعاً إلى لقاء . كان وداعاً إلى الأبد . فما كدت أعود إلى مصر حتى حمل البرق إليها خبراً : أستاذ مصري ، يدعى الدكتور الجدأوي ، شرب شيئاً ثم رقد . ولم يبق من رقدته .

فالله أسأل له الرحمة . وإلى الأستاذ الآخر الفاضل ، الصديق ، الذي أضمر معه ورتب هذه الرحلة ، أبعث عبر البحر بالتهنئة له

بالنجاة مما لم يستطع أن ينجو منه صاحبه ، ولولديه اللذين معه  
أسأل طيبَ العيش ، وللازوجة الأم ، التي افتقدها في الطريق ،  
أدعو بحسن الثواب لجهادها في الحياة وصبرها على الألم في الموت .

\*\*\*

فهذا مثل للرجل عندما يهرب : يقطع كل الصلات .  
يقطع هذا الحبل ، وهذا الحبل ، وذلك ، حتى يَعدَّ من الحبال  
مائة ، ويركب الأرض ، ويركب البحر ، ثم يستقر على الجانب  
الآخر من الحياة ، حاسباً أنه ترك أعداءه ورائه ، فيُسَرَّ . ثم هو  
يتلفت إلى يمينه ، فإذا به يجد أعدى أعدائه ركب الأرض معه ،  
وركب البحر ، وأبى أن يفارقه . . تلك نفسه .

إن صاحبنا الذاهب أصابه في مصر من الناس لاشك شيء .  
كثير . ولكن أكثر ما أُصيب به كان في نفسه . تلك النفس  
الحساسة ، القلقة ، المريضة ، التي أخذت تدفع لومَ الناس بلوم ،  
وترد لهم التهمة بتهم ، وتتلقي البصقة القليلة لتلوكها لتردّها إليهم  
أكبر حجماً وأكثر لزاجة . حتى جعلت من خصومة الناس همَّ  
الحياة . وشغلها المرض والقلق والحسُّ المُرَهَف عن القعود في هدوء  
تدرس فيها أسباب كل هذا الشغب لتبدأ بنصيحتها من إصلاحه .  
بل لعلمها عرفت بالحسن الخفي ما سوف يؤدي إليه هذا القعود ،

وكرهت نصيبها من إصلاح ، فأثرت عليه لفة الخصاص  
ووطيس الحرب .

وذهب الدكتور المسكين ذلك المذهب البعيد ليبراً من  
الناس . وبرئ . ولكنه لم يبرأ من نفسه . لأنه لا يستطيع البعد  
عنها ، وكيف وهو يحملها بين جنبيه .



وآخرون عرفناهم ، لم يضق بهم وطن ، ولكن ضاقت  
أسرة : واتخذوا الزوجة من بعد الزوجة ، وحسبوا فيمن تركوا  
السوء ، وفيمن استجدوا الخير . وتكذب التجربة ، فيعودون  
يطلبون الزوجة الصالحة . وما في الزوجة الفساد ولكن في الزوج .  
وأنبي له أن يرى ، ولم تُخلق بعد المرأة التي يرى بها الرجل نفسه  
كما يرى وجهه ، إذن لعلم أنه في مهربه إنما يهرب من نفسه ،  
وهو لا يستطيع منها هرباً ، وأنه لا يستطيع أن يجد الزوجة  
الصالحة ولو بلغ بالزوجات ألفاً . وأن عليه أن يطلب ، أول  
ما يطلب ، النفس الصالحة .

وغير هؤلاء وهؤلاء قوم ضاقوا بالأولاد ، وقوم ضاقوا  
بالأقارب والأصدقاء ، وقوم ضاقوا بالسياسة والساسة . ولكن  
أكثر ضيق بالرزق . والناس في ضيقها بالرزق تنسى دائماً

هذا البيت الجميل ، وهو فوق جماله ، حقٌّ لا مَرِيَّةَ فيه :  
والنفس راغبةٌ إذا رَغِبَتْهَا      وإذا تُرِدَّ إلى قليلٍ تقنع  
ومن عجب أن من الناس من يضيق بالرزق لسمعه . ثراء  
كثير يأذن لصاحبه بأن يذوق من الدنيا كلَّ مذاق ، ويرضع  
من أندائها كلَّ حَلَب ، حتى لا يكون فيها طعم بَلَد ، أو جديدٌ  
يُغَرِّى . وَيَشْبُرُ الأرض شرقا وغربا ، ويذرعها أرضا وبحرا ،  
ويعود ونفسه معه ، قلقَةً مريضة ، لا يحلو على لسانها الحلو ،  
ولا يَطِيب في أذنها النغم الجميل .

\*\*\*

فإذا ضِيقَتْ وقلقت ، فارجعْ إلى نفسك ، وانظرْ ما بها .  
إن الدنيا كبيرةٌ عظيمةٌ لا يمكن أن يغيّر الفردُ ما فيها . ولكن  
النفسَ صغيرةٌ قليلةٌ ، وهى مِلْكُ صاحبها ، إذا لم تكن غلبته  
فهلكته . وإذا ضاع اتساقٌ بين كبيرٍ وصغيرٍ ، وكثيرٍ وقليلٍ ،  
أعيد الاتساق بتعديل القليل الصغير ليتفق مع الكثير الكبير .  
فعدّلْ من نفسك تعدّلْ الدنيا .



## قلمى

سألونى عن قلمى ، أن  
أكتب فيه . فهذا هو  
بعض ما ظهر منه ، وبعض  
خافيه .

\*\*

كتبت مقالا ، استغرقت  
كما يصب الناس الماء ،  
في كتابته ساعة  
كاملة .

ولكن مع فارق .  
إن الناس إذا  
صبّت شيئا ،  
صبّته دلقا ، أما  
أنا فصببت

وقلم الكاتب روحه ،  
وهوفه ، وهو إرادته ،  
وهو كل شيء يعرفه  
الناس منه ، ويعرفه  
الناس به ، وهو الجزء  
الذى يبقى منه إذا بليت  
سائر الأجزاء .

ونظرت إلى  
قلمى ، وهو يشفّ  
عما احتوى ،

فوجدته قد استنفد كل  
ما احتواه . وقدّرت هذا الذى  
احتواه من حبر فكان نصف  
عُقلة من إصبع . ونظرت  
بعين من لا يرى من الأشياء

ما صببت من هذا السائل  
الأسود على هذا الورق الأبيض  
قطرة قطرة ، فى شيء من  
حذر ، وفى شيء من هوادة ،  
وشىء من تفريق ، وشىء

من تدقيق ، وشيء من تزويق ، فخطُّ ذو طول ، وخطُّ  
ذو قصر ، وخطُّ مستقيم ، وخطُّ ذو عِوَج ، وخطُّ موصول ،  
وآخرُ غير موصول ، وشيء منقوط ، وآخر غير منقوط ،  
والحاصل من كل هذا صحيفةٌ من خطوط ورسوم ، سُمِّوها  
مقالة ، وهى لو جُمعت من جديد ، ورُدَّت إلى حيث كانت ،  
لكانت : نصفَ عُقْلة من حبر أسود .

فهذا أعجب ما وجدت فى قلمى ، وفى كل قلم .  
سائل لا حياة فيه مجتمعا ، فإذا هو تفرق ، أسخط وأرضى ،  
وأضحك وأبكى ، وسرَّ أو ساء . ولا يُسخط ولا يُرضى ،  
ولا يُضحك ولا يبكى ، ولا يسرُّ ولا يسوء ، إلا شيء ذو حياة .  
والقلم هو الذى أعطاه ، أعطى هذا الشيء الأسود ، أو الأزرق  
أو الأحمر ، الذى لا حياة فيه ، هذه الحياة .

إن القلم خالقٌ ، إنه مُبدِعٌ ، بالقدر الذى يأذن الله لخالقه  
من خلق وإبداع .

\*\*\*

ولقد عرفت قلمى أولَ ما عرفت شيئا من بوص ، وعرفت  
معه المِبراة . وكانت السن لا تأذن بأن تجمع اليدُ الصغيرة بين قلم  
ومِبراة . وكانت السن الصغيرة لا تأذن بأن يدخل صاحبها المدرسة ،

فأدخلوني روضة أطفال ذلك الزمان . . . الكتاب .  
ولم يَرُقْ لى الكتاب فلم أقض به إلا يوماً أو بضعة من  
أيام ، وضعتُ به ، وُثِرَتْ عليه ، وعصفتُ بأشياء فيه .  
وقصفتُ أشياء ، وكان فيما قصفته أولُ قلمٍ عرفته .  
ودخلنا المدرسة ، فكان أول شيء أتخفونا به ، حُرْمَةٌ من  
ذاك البوص ، قالوا لنا إنها الأقلام ، وإنها لعامر أو بعض عام .  
وجاء أول درس كان علينا فيه أن نتعلم ، كيف نكتب بالقلم ،  
فإذا المدرس ، وكان ذا عمامة ، يقضى ساعة وساعة في بريها ، ثم  
إصلاح شكلها ، ثم ترقيقها ، ثم تضيقها ، ثم يضغط على السن  
الرفيعة من ظاهرها ، فتنشق ، ثم هو يَقُطُّهَا ، قَطَّةً لثُلُث ،  
وقطَّةً للنسخ ، وقطَّةً لغير هذا وهذا . ثم نغمس القلم الرقيق ،  
ذى السن المشقوقة ، في المِخْبَرَةِ ، فيشرب منها ، ونحُطُّ به  
انجرب ، فقد نَحْمَدُ وقد نَذَمُ . ويبدأ الدرس ، درس الخط .  
ولا يلبث الشيخ فيه طويلاً حتى يقطعه من جديد ، ليدور علينا  
بسلاحه الحديد ، لِيُقِيلَ عَثْرَةَ سِنِّ رَفِيعَةٍ كَبَتَ عَلَى الْوَرَقِ مِنْ  
رَقَّتْهَا . أَوْ يُرَفِّعَ مِنْ سِنِّ ثَخِينَةٍ بَطَشَ الْخَبْرُ مِنْهَا لثَخُونَتِهَا .  
كان المدرس الشيخ ، مُعَلِّمَ خَطٍ وَبَرَاءِ أَقْلَامٍ فِي آن .  
وتقدم الزمن فجاءتنا الأقلام في أول العام مَبْرِيَّةً جَاهِزَةً ،

ثم علينا وعلى آباءنا إصلاحها من بعد ذلك .  
 وزاد الزمان تقدماً . فإذا نحن نستبدل بسن الخشب شيئاً  
 من فولاذ . وحدث هرجٌ وحدث مرجٌ من هذه النُّقْلة  
 الكبيرة ، وضجى الناس فيها بشيء من الفن الجميل غير قليل ،  
 قدّموه قُرْبَانًا للحدائث وللسهولة وللكترة الكبيرة من الشعب  
 التى كان لابد لها أن تتعلم فى سرعة ، وفى غير عَنَتٍ وفى غير إرهاق .  
 وعاد الزمن يتقدم ، فإذا القلم يحمل فى بطنه غذاءه ، ويمُجّج  
 من معدته ريقه ، وصار القلم قلماً ومُخْبِرَةً فى آن .

فهذه أقلامى منذ عرفتُهُ وعرفتِى الزمان ، ليت شعرى  
 لو عَدَدْتُهَا كم قلمًا تكون ؟ وعرفت أقلامى أول ما عرفت  
 العربية ، ثم هى تتدرج فتعرف الإنجليزية ، ثم إذا هى بالفرنسية  
 تلوذ ، ثم هى من الألمانية تَعُوذ . حتى التركية كان لها من  
 محارِبى سُقْيَا ، وكان لها نصيب .

\*\*\*

وأقلام الكاتب تتعدد كثيراً ، وهى إنما قلمٌ واحد . وهى  
 قد تطول وقد تقصر ، وهى قد ترقُّ وقد تغلُظ ، وقد تختلف  
 مادة وقد تختلف شكلاً ، وقد تختلف جوهراً وقد تختلف  
 عَرَضاً ، وقد تختلف فصاحة وتختلف رِطَانَةً ، ولكنها فى كل  
 ذلك أجسام تتفق معها روحٌ واحدة .

والرجل يركب الدابة ليقودها إلى حيث يُريد . والقلمُ  
يركبُ يدَ الإنسان ، ولكنه لا يَقُود . إنه راكب مقود : إنه  
راكب مركوب ، زِمَامُهُ في تلك الروح الواحدة :  
وقلم الكاتب روحه ، وهو فنه ، وهو إرادته ، وهو كل  
شئ يعرفه الناس منه ، ويعرفه الناس به ، وهو الجزء الذى يبقى  
منه إذا بليت صائر الأجزاء :  
إن قلم الكاتب مرآة يراه فيها الناس .

\*\*\*

وأكتب أحيانا فيسهل قلمى فيجربى بى رَحْمًا : وأكتب  
أحيانا فيصعب قلمى ، ويَحْرَن ، وأُنْحَسُهُ فلا يتقدم خطوة .  
وقلمى يرضى فيميل إلى الزهر والورد والرياض فيفشاها  
ضاحكا أو باسما . وقلمى يفضب فيطلب زفت الأرض وقطرانها  
يصبه على بعض الرموس كَحَمًا ، وهو متجهم ثائر ، ثم يدو  
بمجهوده فيسترخى ، ثم لا يرى ما كتب الضياء .  
وقلمى يعتريه حيفا شكٌ فيما يكتب ، وفي قيمة ما يكتب ،  
وفي قيمة الناس والأشياء والحياة ، فيرقد زهادة . وحينما أغربه  
بالقيام فيقوم ، وأغربه بالجِد فيأبى مزاجه أن يكتب إلا سخرية ،  
وإلا هزلا .

وقلمى عامل كبعض العمال ، وهو قد يؤجر على ما يكتب  
كما يؤجر العمال ، ويؤجر فى غير بنس ، ومع هذا لا يبالى أن  
لا يؤجر ، ولا يبالى أن لا يعمل ، وكرة فيما صادف فى جوانب  
الحياة الأخرى رتبة الحياة ، فهو يكره الكتابة الراتبية ، ويكره  
حياة المصنع ، الذى يبدأ العمل فيه بصغير ، وينتهى بصغير .

ولكل رجل فى الحياة صاحب وصحاب . وقلمى الصق  
أصحابى بنفسى ، وأمزجهم بها ، وأحضرهم إذا دعوت . وأفاق  
مع الليل فأقوم عن الفراش فأطلب السمير والزميل ، فيكون  
قلمى زميلى وسميرى ومخفّف وطأة الزمان الثقيل . وأبوح له ،  
ليبوح للناس ، فيفعل ، وأبوح له ليبوح ثم أعدل ، وأقول  
لا تبخ فلا يبوح . إن قلمى صاحب نجواى وصاحب علايتى ،  
وهو منى ، ونحن من أهل الدنيا اللذان نحيا الحياة إذا حيينا  
سويا ، ونكف عنها إذا كففنا سويا ، والله غاقبة الأمور .

# كتب المؤلف

---

مرجريت أو غادة الكمليا

قصة المكروب

چان درك

سلطة علمية

سلطة أخرى علمية

ساعات السحر

بين المسموع والمقروء

وهي تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

٩ شارع الكرداسى بعابدين - القاهرة

ومن المكاتب الشهيرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٦٥ / ١٩٦٩

القاهرة

مطبعة بجنّة النّاليف والرحمة ونشر



القاهرة

مطبعة بيمتة الناييف والرحمة والنشر